بلاغة ضروب التوكيد
في أحاديث الترغيب والترهيب

دكتور

رجب محمد سالم رفاعى

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

جامعة الأزهر

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين . علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان . أحمـــده سبحانه وتعالى حمدا طيبا مباركا كما يليق بجوده وكرمه واشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له أمرنا أن ندعوه بقوله ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ واشـــهد ان سيدنا محمدا عبده ورسوله أفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء وهو القائل محدثا عـن نفسه " أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش " اللهم صلى وسلم وبـــارك عليـه وعلى آله وأصحابه وأتباعه وأحبابه أجمعين .

أما بعد : فإن السنة بيان للقرآن ، أو زيادة علـى ذلـك .(١) يقـول الله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَـــا نُـزِّلَ إِلَيْـهِمْ ﴾ . (٢) ثـم إن الاستقراء يدل على ذلك حيث إن فى السنة أشياء كثيرة لم ينص عليها القـرآن كعدد ركعات أوقات الصلاة ، ونصاب الزكاة ، وتحريم الحمر الأهلية ، وكـل ذى ناب من السباع ... إلخ .

ولهذا كانت أحاديث رسول الله ﷺ فى قمة البلاغـــة ، ولا غـرو فـى هذا فقد تربى ﷺ فى قرش ونشأ فى بنى سعد . أضف إلى ذلك عنايـة الله لـه وتوفيقه ، فقد ابتعته للعرب وهم قوم يقادون من ألســـنتهم ، ولـهم المقامـات المشهورة فى البيان والفصاحة . يدل على ذلك قوله ﷺ " أنا افصح العـرب ، بيد أنى من قريش ، ونشأت فى بنى سعد بن بكر " (٣) وتعليلـه ﷺ بأسـباب تقويم اللسان إلى أعلى درجة عرفها العرب ، يدل على أن لفظ الحديـث مـن عنده ، وأما قوله ﷺ " أوتيت جوامع الكلم " (٤) فيحمل على ما آتـاه الله مـن حسان المعانى وكبارها ، تجتمع له تحت لفظة موجزة .

---

(١) الموافقات : ج ٣ ص ٤ .
(٢) سورة النحل . الآية (٤٤) .
(٣) مقدمة الفائق فى غريب الحديث .
(٤) تيسير الوصول إلى جامع الأصول ١٣٢/ ٤ .

وقد عنى العلماء منذ القدم ببلاغة الحديث ، بل راع الصحابة رضى الله عنهم منه بيانه حتى كانوا يتناشدونه بينهم ، ولهذا وجد الباحثون أفكارهم مسوقه للكلام عن أسرار البيان فى مجالهم ومؤلفاتهم .

يقول : مصطفى صادق الرافعى فى كتابه : " إعجاز البلاغة النبوية " نقلا عن وصف الجاحظ لكلامه ﷺ : " هو الكلام الذى قل عدد حروفه وكثر عدد معانية ، وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف ، استعمل المبسوط فى مواضع البسط ، والمقصور فى مواضع القصر وهجر الغريب الوحشى ، ورغب عن الهجين السوقى ، فلم ينطق إلا ميراث حكمه ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة ، وشد بالتأييد ويسر بالتوفيق ، وهذا الكلام الذى ألقى الله المحبة عليه وغشاه بالقبول ، وجمع له المهابة والحلاوة وحسن الإفهام ، وقلة عدد الكلام ، وهو مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، ولم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبز الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفلج (١) إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلافة ، ولا يستعمل المؤاربة ، ولا يهمز ولا يلمز ، (٢) ولا يبطئ ولا يعجل ولا يسهب ولا يحصر ، ثم لم يسمع الناس بكلام قط ، أعم نفعا ولا اصدق لفظا ، ولا أعدل وزنا ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين عن فحواه — من كلامه ﷺ . (٣)

---

(١) الفلج : الفوز والظفر .

(٢) لا يهمز ولا يلمز : لا يغتاب ولا يعيب .

(٣) ينظر : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٢٣١ للرافعى طبعة دار المنار .

لذا فإن بلاغة الرسول ﷺ بحر خضم متلاطم الأمواج . متعدد المنـــابع ينهل منه العلماء والباحثون والدارسون .

وقد أردت أن أنهل من مورده العذب وأكشف عــن قطــرة مــن بحــر بلاغته وعذوبة منطقه فى هذا البحث المتواضع ، وآثرته بالحديث عن بلاغــة ضروب التوكيد فى أحاديث الترغيب والترهيب . لما لهذه الأحاديث من أهميــة فى نطاق الدعوة إلى الله . فالرسول ﷺ أرسل للناس كافــة بشــيراً ونذيــراً ، مبشراً من أطاعه بالجنة وهذا يحتاج إلى الترغيب فى كل قول وعمل يوصــل إليها ، ونذيراً لمن عصاه بالنار وهذا يحتاج إلى الترهيب والتخويف مــن كــل قول وعمل يوقع فيها .

وقد آثرت أيضا ضروب التوكيد فى هذه الأحاديث لظهورها وعمومــها فيها ، ولما للتوكيد من وقع فى القلوب وتأثير على النفوس .

وقد اشتمل البحث على مقدمة ، وتمهيد ، وثلاثــة فصــول ، وخاتمــة المقدمة وتتضمن أهم أسباب ودوافع اختيار هذا البحث ، والمنهج الذى ســرت عليه .

التمهيد :

ويتضمن الإشارة إلى أهم ضروب التوكيد ودوافعه .

الفصل الأول : ضروب التوكيد الفعلية فى أحــاديث الــترغيب والــترهيب ، ويشتمل على مبحثين .

المبحث الأول : ضروب **التوكيد** الفعلية وأسرارها البلاغية فى أحــاديث الترغيب .

المبحث الثانى : ضروب **التوكيد** الفعلية وأسرارها البلاغية فى أحــاديث الترهيب .

الفصل الثانى : ضروب التوكيد اللفظية فى أحـــاديث الـــترغيب والـــترهيب . ويشتمل على مبحثين .

المبحث الأول : ضروب التوكيد اللفظية وأسرارها البلاغية فى أحـــاديث الترغيب .

المبحث الثانى : ضروب التوكيد اللفظية وأسرارها البلاغية فى أحـــاديث الترهيب .

الفصل الثالث : ضروب التوكيد المعنوية فى أحاديث الـــترغيب والـــترهيب . ويشتمل على مبحثين .

المبحث الأول : ضروب التوكيد المعنوية وأسرارها البلاغية فى أحاديث الترغيب .

المبحث الثانى : ضروب التوكيد المعنوية وأسرارها البلاغية فى أحاديث الترهيب .

الخاتمة : وتتضمن أهم نتائج البحث التى توصلت إليها.

وقد أوردت فى كل مبحث مجموعة من الأحاديث التى اشـــتملت علـــى ضرب من ضروب التوكيد المشار إليها مبينا نوعه ، ومحاولا كشف اللثام عـن الدعى له وما أفاد من أسرار ولطائف شافعا ذلك ببيان ما فى الحديث من نكات بلاغية أخرى ، وفقا لاحتياجات ومقتضيات البحث متبعا فـــى ذلـــك المنـــهج التحليلى .

هذا وبالله التوفيق

دكتور

رجب محمد سالم الرفاعى

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

جامعة الأزهر

تمهيد :

ضروب التوكيد وأهم دوافعه

يعد التوكيد طريق هام من طرق التعبير كثيرا ما يسلكه المتكلم لدوافع وأغراض كثيرة يقتضيها المقام . فما من أديب إلا ويستخدمه فى كلامه ، وقد جاءت صور كثيرة منه فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

ذلك أن رسول الله ﷺ معلم البشرية من عند ربه ، والمعلم مقرر : يتخذ وسيلة وأخرى كى يصل إلى قلوب المتعلمين منه فى رفق ورحمة ، وحرص هادف لأنه من أنفسهم ،ويعرف ما يتناسب معهم من أساليب القول عند دعوته لهم ، لهذا اتخذ عليه الصلاة والسلام فى دعوته طريقة تقريرية استخدم فيها ضروبا من التوكيد لتوضيح المعالم ، وتمكين الرسالة ، وليس أدل على هذا المنهج الذى عم أدق الأمور وأخفاها من حديث سلمان رضى الله عنه وقد قال له المشركون ساخرين : إنا نرى صاحبكم يعلمكم حتى الخراءة ، فأجاب فخورا عالما : أجل لقد نهانا أن يستنجى أحدنا بيمينه ، أو يستقبل القبلة بغائط أو بول ، ونهى عن الروثة والعظام ، وقال : " لا يستنجى أحدكم بدون ثلاثة أحجار " . (١)

ومن المعروف أن الأساليب العربية تتكئ على ركائز من أدوات ظاهرة ، أو أدوات مقدرة ، أو أنواع من التأليف تحسب كلها وسائل هامة تفيدنا اهتمام المتكلم بالخبر الملقى ، أو الطلب المرغوب وتزيل من حوله الأسباب الظاهرة أو المحتملة من الشك والجحد ، تثبيتا له فى عقول المخاطبين ، هذه الوسائل كلها تدخل فى إطار ضروب التوكيد .

وفى هذا التمهيد سأتناول بشىء من الإيجاز كشف اللثام عن مفهوم التوكيد ، ودعاويه ، وأغراضه ، وأهم ضروبه .

---

(١) ينظر تيسير الوصول إلى جامع الأصول ص ٥٩ ج ٣ .

أولا : مفهوم التوكيد :

يقول ابن يعيش : ([1]) التأكيد لغة فى التوكيد ، يقال : تأكيد وتوكيد بالهمزة والواو الخالصة وهما لغتان ، وليس أحد الحرفين بدلا من الآخر لأنهما يتصرفان تصرفا واحداً ، ألا تراك تقول : أكد يؤكد تأكيدا ، ووكّد يوكد توكيداً ، ولم يكن أحد الاستعمالين أغلب فيجعل أصلا فلذلك قلنا : إنهما لغتان . ([2])

ويقال أكد الشيء ووكده ، والواو أفصح ، ويقال : وكد العقد والعهد أوثقه ، والهمزة فيه لغة ، ويقال : : أوكدته وأكدته ، وآكدته إيكاداً أى شددته ، وتوكد الأمر وتأكد ، ويقال : وكدت اليمين ،والهمز فى العقد أجود ، تقول : إذا عقدت فأكد ، وإذا حلفت فوكدّ . ([3]) قال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ . ([4])

ووكد كلمة تدل على شدة وإحكام ، وأوكد عقدك أى : شدّه ، والوكاد : حبل تشد به البقرة عند الحلب ، ويقولون : وكّد وكْده إذا أمّه وعنى به . ([5])

([1]) ابن يعيش : هو يعيش بن على أبى السرايا محمد بن على ابو البقاء موفق الدين الأسدى اشتهر بابن يعيش وبابن الصانع من كبار العلماء بالعربية موصلى الأصل . مولده ووفاته فى حلب من أهم مؤلفاته شرح المفصل للزمخشرى والتصريف الملوكى لابن جنى . الأعلام للزركلى ج ٨ ص ٢٠٦ .

([2]) ينظر شرح المفصل لابن يعيش ج ٣ ص ٣٩ نشر مكتبة المتنبى .

([3]) ينظر : لسان العرب لابن منظور ج ٦ مادة (وكد) نشر المعارف .

([4]) سورة النحل : الآية (٩١) .

([5]) ينظر : معجم مقاييس اللغة ١٣٨/٦ لأبى الحسن أحمد بن فارس بن زكريا . ت/ د عبد السلام هارون دار الفكر للطباعة والنشر .

ثانيا : دواعى التوكيد وأغراضه :

من الملاحظ أن التأكيد لا يؤتى فى الكلام إلا لحاجة ، ومن هنا كان للتوكيد دواعيه وأسبابه ومراتبه التى قال بعضهم فيها : إنما يؤتى به لحاجة كالتحرز عن ذكر ما لا فائدة له ، فإن كان المخاطب خالى الذهن ألقى إليه الكلام بدون تأكيد ، وإن كان مترددا فيه حسن تقويته بمؤكد وإن كان منكراً وجب تأكيده بأكثر من مؤكد ، ويراعى فى ذلك القوة والضعف بحسب حال المنكر .

انظر كيف تدرجت الآية الكريمة فى التأكيد وفق إنكار المنكرين فى قول الله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ *إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ * قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَانُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ . (١)

فالآية الكريمة تصور حواراً جرى بين الرسل وأصحاب القرية التى أرسلوا إليها ، وقد جاء خطاب الرسل لأصحاب القرية فى المرة الأولى مؤكداً بإنّ ، واسمية الجملة ، لأنهم كذبوا بدليل قوله تعالى ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ فلما رد عليهم أصحاب القرية بقولهم ﴿ مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ مؤكدين ردهم بالنفى والاستثناء ، أى لستم رسلا ، لاعتقادهم أن الرسول لا يكون بشرا ، مردفين ذلك بقولهم ﴿ وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَانُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ وهو تأكيد ثان لنفى الرسالة عنهم بصورة أبلغ ، وقالوا : ﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ولم يقولوا : " شيئا " وإنما عمموا " بالنفى ومن " وكأنهم لا ينكرون رسالة هؤلاء الرسل فقط ، بل كل ما يندرج تحت معنى " شىء " النكرة العامة من الرسالات السماوية ، وزادوا ذلك بتكذيب الرسل بطريق القصر والاستثناء ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ ،

---

(١) سورة : يس الآيات من ١٣-١٦ .

ولم يكن الرسل مغالين ، إذا أكد لهم رسالتهم بتأكيدات أشد تتناسب مع تـأكيدات الإنكار السابقة .

وقد قابل الرسل هذا الإنكار الشديد بتأكيد مضاعف ﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ فكرروا عرض قضيتهم ، وفى التكـــرار تـأكيد وتقويـة ، وأكدوها بإن واللام واسمية الجملة . وصدروها بشهادة من الله علـى صدقـها ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ ﴾ . وهى فى معنى القسم ، ومن هنا نرى أن عناصر التوكيد قـد زادت بزيادة إنكار المخاطبين ، وجاء التعبير القرآنى ، مطابقا لمقتضى حالـهم فى كل مرة (١) وانظر قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا * وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَـى * وَأَنَّ عَلَيْـهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى * وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى * وَأَنَّـهُ أَهْلَـكَ عَادًا الْأُولَى ﴾.(٢)

تجد التوكيد بضمير الفصل فى قوله ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَـكَ وَأَبْكَـى ﴾ ، لأنه يظنُّ أن الناس يُضْحكون ويبكون ، أى : يسرون غـيرهم ويحزنونـهم ، فأكد اختصاصه – سبحانه – بذلك ليبطل أن يكون لغيره سبحانه فاعليـة فـى شئون عباده حتى الإضحاك والإبكاء ، وهى أقرب الأفعال إلى أن تكون مظنـة للشركة ، وجاء بالضمير أيضا فى قوله ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ ، لأنه قـد يظن أن الإنسان يميت بالقتل أو يحيى بالقوت ، هذا ما يفهم من كلام العلـوى ، ولا يبعد عندى أن يكون للرد على من ينكرون الحياء بعد الإماتة . ثم لم يـأت بالضمير فى الآية التى بعدها ؛ لأن خلق الإنسان مما لا تظن الشركة مـع الله فى فعله ، ثم إن المعاندين أنفسهم لم يتشددوا فى إنكار مخلوقيتـهم لله ؛ لأنـهم

---

(١) ينظر : دراسات تحليلية للفصاحـة والبلاغـة والإسـناد . د / الشـحات أبـو سـتيت ص (٩٤ ، ٩٥) . بتصرف .

(٢) سورة النجم الآيات من ٤– ٥٠ .

يقولون فى السموات والأرض ﴿ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ وأكد فى قوله ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ﴾ لأنه مما يظن فيه الشركة ، وذلك واضح فقد يعتقد الإنسان أنه يقنى غيره ، أو أنه يقنى نفسه ، فاستأصل ذلك ليقرر فى الضمير أن العطاء والمنع معنى لو تأملت آثاره فى تكوين الذات لوجدته كبيراً جداً ، ومعنى أقنى أعطى القنية وهى — كما يقول الزمخشرى — المال الذى تأثلته وعزمت الا تخرجه من يدك ، ثم أكد ﴿ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ﴾ لأن خزاعة كانت تعبدها فأكد بربوبيتها له سبحانه وقال : رب الشعرى ولم يقل إله الشعرى لأن الربوبية فيها إشارة إلى أنها مخلوقة له سبحانه فكيف تعبد من دونه ؟ ثم قال ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا ﴾ من غير تقرير لأن استئصال قوم مما لا تظن فيه الشركة ، وهكذا نجد نبرة التوكيد تعلو وتهبط فى مراقبة دقيقة وبالغة لمواقع المعانى فى النفوس ، وما تنطوى عليه دواخلها . وسبحان المحيط بالأسرار . (١)

ويقول صاحب كتاب البرهان فى علوم القرآن : " وللتوكيد أغراضه ، فالكلام إذا تأكد تقرر ، وصار حقيقة لا مراء فيها ، وبات لا شك ولا نزاع يدور حوله ، والقصد من التأكيد الحمل على ما لم يثبت فى ذهن المخاطب ليصير ثابتا . (٢)

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ . (٣)

وقوله أيضا ﴿ حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ (٤) ثم إن دواعى التوكيد وأغراضه لا تدور حول مواجهة تردد

---

(١) خصائص التراكيب للدكتور أبو موسى ص ٥٠ الطبعة الأولى ط وهبة .

(٢) ينظر البرهان فى علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركش ج ٢ ص ٣٨٤ . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . ط الثانية . نشر دار المعرفة .

(٣) سورة القدر . الآيات من ١-٣ .

(٤) سورة الدخان . الآيات من ١-٣ .

المخاطب فى قبول الخبر أو إنكاره له ، بل له دواعى وأغراض كثـــيرة تفـــهم من فحوى الأسلوب وسياق الكلام . وقد جاء فى القرآن الكريم ، وفـــى الســـنة النبوية ، وغيرها من مأثور القول لأغراض كثيرة وأســـــباب متعـــددة تفـــوق الحصر.

وقد ذكر الزمخشرى ([1]) فى تفسيره دواعى للتوكيد منها :

١- أن التوكيد قد يكون لتقرير المعنى فى نفس المخاطب وتثبيته ، وإن كانت خالية من كل أثر للإنكار أو الشك كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَـــا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴾ ([2]) يقول الزمخشرى تكرير الضمير بعد إيقاعـــــه اسما لـــ (إنَّ) تأكيد على تأكيد لمعنى اختصاص الله تعـــــالى بـــالتنزيل ليقرر فى نفس رسول الله ﷺ أنه إذا كان هو المنزل لم يكن تنزيله علـــى أى وجه نزل إلا لحكمة وصوابا ، ولقد دعتنى حكمة بالغة إلى أن أنـــزل عليك الأمر بالقتال والانتقام بعد حين " . ([3])

٢- ومنها أن التأكيد قد يكون لتحقيق المعنى عند المتكلم ، وهـــو يريـــد أن يوطن نفس المخاطب لتلقيه وقبوله كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنِّـــي آنَسْـــتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ ﴾ ([4]) . قال الزمخشرى : لمـــا وجـــد منـــه الايناس فكان مقطوعا متيقنا حققه لهم بكلمة " إنَّ " ليوطن أنفسهم ، ولمـــا

([1]) الزمخشرى هو محمود بن عمر محمد بن أحمد الخوارزمى ، الزمخشرى جـــار الله أبـــو القاسم من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والأدب ، كان معتزلى المذهب ، توفى ســـنة ٥٣٨ . انظر ترجمته فى الأنساب للسمعانى الورقة (٢٧٧) ومعجم البلدان فى مـــادة : زمخشر ، ومعجم الأدباء ص ١٩ ص ١٢٦ .

([2]) سورة الإنسان . الآية (٢٣) .

([3]) ينظر الكشاف ج ٤ ص ٥٣٩ ، البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى ص ٤١٤ .

([4]) سورة طه : لآية (١٠) .

كان الإتيان بالقبس ووجود الهدى مترقبين متوقعين بنى الأمر فيهما على الرجاء والطمع " . ([1])

٣- ومن دواعى التوكيد إماطة الشبهة لغرابة الخبر وحاجته إلى التقرير والتحقيق يقول فى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى ۝ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ﴾ . ([2]) تكرير الضمير فى ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ﴾ لتوكيد الدلالة وتحقيق المعرفة وإماطة الشبهة " . ([3])

٤- وقد يكون التوكيد مظهرا لتعلق النفس بالخبر واهتمامها به ، وأنه جدير عندها بالتقوية والتقرير ، وأن المخاطب متقبل له ، غير منكر ، ولا مدافع ، كما أن إرسال الكلام غفلا من التأكيد لأن النفس غير متعلقة به ، ولا صادقة الرغبة فيه ، وأن المخاطب ينكره إنكارا لا ينفع معه أبلغ صور التوكيد ، يقول فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ . ([4]) " فإن قلت : لم كانت مخاطبتهم المؤمنين بالجملة الفعلية ، وشياطينهم بالاسمية محققة بـ (إنّ) ؟ قلت : ليس ما خاطبوا به المؤمنين جديرا بأقوى الكلامين ، وأوكدهما ، لأنهم فى ادعاء حدوث الإيمان منهم ونشئه من قبلهم ، لا فى ادعاء أنهم أوحديون فى الإيمان غير مشكوك فيه غيارهم ، وذلك إما لأن أنفسهم لا تساعدهم عليه ، إذ ليس لهم من عقائدهم باعث ومحرك ، وهكذا كل قول لم يصدر عن أريحية وصدق رغبة واعتقاد ، وإما لأنه لا يروج عنهم لو قالوه على لفظ التوكيد والمبالغة ، وكيف

([1]) ينظر الكشاف ج ٣ ص ٤١ ، البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى ص ٤١٤ .

([2]) سورة طه : الآيتان (١١ ، ١٢) .

([3]) ينظر الكشاف ج ٣ ص ٤٢ ، البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى ص ٤١٥ .

([4]) سورة البقرة : الآية (١٤) .

يقولون ويطمعون فى رواجه وهم بين ظهرانى المـــهاجرين والأنصـــار الذين مثلهم فى التوراة والإنجيل ، ألا ترى حكاية الله قـــول المؤمنيـــن : ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا ﴾ (١) وأما مخاطبة إخوانهم فهم فيما أخبروا بـــه عـــن أنفسهم من الثبات على اليهودية والقرار على اعتقاد الكفر والبعـــد مـــن أن يزالوا عنه عن صدق ورغبة ، ووفور نشاط وارتيـــاح للتكلـــم بـــه ، وما قالوه من ذلك فهو رائج متقبل منهم ، فكان مظنـــة للتحقيـــق ومتنـــة للتوكيد " . (٢)

٥- وقد يكون التوكيد لمواجهة تطلعات النفس وحسم آمالها ، وأطماعها كمـــا فى قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِـــدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا ﴾ . (٣) ، وارد على طريـــق من التوكيد لم يرد عليه ما هو معطوف عليه ؟ قلت : الأمر كذلـــك لأن الجملة الاسمية آكد من الفعلية ، وقد انضم إلى ذلك قوله ﴿هُوَ ﴾ وقولـــه ﴿ مَوْلُودٌ ﴾ والسبب فى مجيئة على هذا السنن أن الخطـــاب للمؤمنيـــن وعليتهم قبض آبائهم على الكفر ،وعلى الدين الجـــاهلى ، فـــأراد حســـم أطماعهم ، وأطماع الناس فيهم أن ينفعوا آباءهم فى الآخرة ، وأن يغنـــوا عنهم من الله شيئا ، فلذلك جيء به على الطريق الآكد .(٤)

٦- وقد يكون التوكيد لتقرير وعد الله وتثبيته حتى تزداد النفـــوس اطمئنانـــاً إليه ووثوقا فيه ، فلا تلتفت إلى أمانى الشيطان ووعده لأوليائـــه ، يقـــول الزمخشرى فى قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَـــنُدْخِلُهُمْ

---

(١) سورة آل عمران : الآية (١٦) .

(٢) ينظر : الكشاف ج ١ ص ٥٠ . والبلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى ص ٤١٦ .

(٣) سورة لقمان : الآية (٣٣) .

(٤) ينظر : الكشاف ج ٣ ص ٣٩٨ . والبلاغة فى تفسير الزمخشرى ٤١٦ .

جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ (١) ﴿ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ﴾ مصدران ، الأول مؤكد لنفسه ، والثانى مؤكد لغيره ، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ توكيد ثالث بليغ . فإن قلت : ما فائدة هذه التوكيدات ؟ قلت : معارضة مواعيد الشيطان الكاذبة ، وأمانية الباطلة لقرنائه ، بوعد الله الصادق لأوليائه ، ترغيبا للعباد فى إيتاء ما يستحقونه به تنجيز وعد الله على ما يتجرعون عاقبته غصص إخلاف مواعيد الشيطان . (٢)

٧- وقد يتجه المتكلم إلى تصوير ما فى نفوس الآخرين من خواطر وأفكار فيأتى تصويره فى عبارات مؤكدة ليشير بهذا إلى أن هذه الخواطر والأفكار متقرره فى هذه النفوس ومتمكنة منها كما فى قوله تعالى : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ ﴾ (٣) . يقول الزمخشرى : " فإن قلت : أى فرق بين قولك : وظنوا أنهم تمنعهم أو مانعتهم ، وبين النظم الذى جاء عليه ؟ . قلت فى تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ، ومنعها إياهم ، وفى تصيير ضميرهم لـ (إن) واسناد الجملة إليه ، دليل على اعتقادهم فى أنفسهم ، أنهم فى عزة ومنعة ، لا يبالى معهم بأحد يتعرض لهم أو يطمع فى معازتهم ، وليس ذلك فى قولك : وظنوا أن حصونهم تمنعهم .(٤)

وجاء فى البرهان : أن جمهور الأمة أجمعوا على وقوعه فى القرآن والسنة ، واعترض الملحدون على القرآن والسنة بما فيها من التأكيدات ، وأنه

---

(١) سورة النساء . الآية (١٢٢) .

(٢) ينظر : الكشاف ج ١ ص ٤٤٠ . والبلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى ص ٤١٦.

(٣) سورة الحشر : الآية (٢) .

(٤) ينظر : الكشاف ج ٤ ص ٣٩٨ . والبلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى ص ٤١٧.

لا فائدة فى ذكرها ، وأن من حق البلاغة فى النظم إيجاز اللفـــظ ، واســتيفاء المعنى ، وخير الكلام ما قل ودل ولا يمل ، والإفادة خير من الإعادة ، وظنــوا أنه إنما يجئ لقصور النفس عن تأدية المراد بغير تأكيد ، ولهذا أنكروا وقوعــه فى القرآن .

ورد على الملحدين بأن القرآن نزل بلسان القوم وفـــى لســانهم التــأكيد والتكرار ، بل هو عندهم معدود فى الفصاحة والبراعة ، ومن أنكر وجوده فى اللغة فهو مكابر ، إذ لولا وجوده لم تكن لتسميته تأكيداً فائدة ، فــإن الاســم لا يوضع لمسمى معلوم لفائدة فيه ، بل فوائد كثيرة .([1])

وبعد : فإن لطرق التوكيد وضروبه دورها فى تمكين المعنى فى النفـــس وتقويته لإزالة ما يحيط من شك ، ثم إن المراد بالتأكيد : تأكيد الحكـــم الــذى تضمنته الجملة ، وليس المراد تأكيد المسند إليه وحده ، ولا تأكيد المسند إليــه وحده ، ومقامات التأكيد متعددة ومتنوعة وبخاصة فى القرآن الكريــم والســنة النبوية والمأثور من كلام العرب ، والمتأمل فيها يخرج بكثير مــن اللطــائف والأسرار .

ثالثا : أهم ضروب التوكيد والتقرير :

ضروب التوكيد والتقرير فى اللغة كثيرة ، لا يمكن حصرها واستقصاؤها منها ما هو فعلى ، يتمثل فى الإشارات والحركات والأفعال التى تصـــدر مــن المتكلم أثناء كلامه يفهم منها ما يعنيه من توكيد وتقرير لما يتضمنه كلامه مــن معانى ودلالات وهذا كثير فى أحاديث رسول الله ﷺ ، وسنكشف اللثام عنه فى حينه إن شاء الله .

([1]) ينظر : البرهان فى علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بـــن عبــد الله الزركشـــى ج ٢ ص ٣٨٤ تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ط الثانية نشر دار المعرفة .

ومنها ما هو لفظى وهو أظهر أنواع التوكيد وله طريقان :

أحدهما : أن يكون بأداة وضعتها اللغة أو العرف البلاغى لإفادته ؛ منها : (إنَّ وأنَّ) المشددتين ، ونون التوكيد الثقيلة والخفيفة ، والسين وسوف ولام الابتداء التى تفيد التوكيد وإزالة الشك ، والقسم ، ولام القسم وهى الواقعة فى جواب القسم ، وتفيد تأكيد المقسم به وتحقيق مضمونه ، وقد وحروف التنبيه وهى : ها ، وألا وأما ، وهى تؤكد المعنى وتحققه فى ذهن المخاطب عن طريق التنبيه إليه . ([1]) إلى غير ذلك مما يفيد التوكيد .

الثانى : مما هو لفظى أن يكون بإعادة الجملة ، أو شىء منها على الوجه الذى يلمس المتكلم حاجة المعنى إلى إعادته . والإعادة والتكرار سنة بيانية من سنن العرب ، جاء عليها القرآن الكريم والحديث الشريف ، قال الإمام السيوطى فى مزهره " من سنن العرب التكرير والإعادة إرادة الإبلاغ بحسب العناية بالأمر " .([2])

ومنها ما هو معنوى يفهم من سياق الكلام ؛ فقد تفيد بعض الأساليب التوكيد والتقرير دون الاستعانة بأى من ألفاظ التوكيد المعروفة لدى اللغويين ، يقول الدكتور محمد أبو موسى : " المؤكدات لا يمكن الإحاطة بها ، فإن كثيراً من طرق بناء الكلام تعطيه تقوية ووكادة ، فالذكر قد يفيد توكيدا ، والحذف قد يفيد توكيدا ، والوصل والفصل ، والتكرار والاعتراض ، والالتفات ، وصور التشبيه ، والاستعارة ، وأنواع المجاز ، والكناية ، وكل هذا وغيرها تفيد أنواعا من التوكيد والمبالغة فى تثبيت المعنى أو نفيه ، سواء أكان هذا

([1]) ينظر شرح المفصل لابن يعيش ج ٨ ص ١١٤ ، ١١٥ .

([2]) ينظر : المزهر للسيوطى . ج ١ ص ٣٣٢ .

التوكيد بأداة من أدوات التوكيد ، أو كان بصورة من صور البنـــاء ، أو كـــان بحال من أحوال اللفظ " .([1])

هذه أهم ضروب التوكيد . وسنكشف عن الكثير منها وعما أفادتـــه مـــن أغراض وإيحاءات عند دراسة أحاديث رســـول الله ﷺ المتعلقـــة بـــالترغيب والترهيب فى الفصول الآتية إن شاء الله .

([1]) ينظر : البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى وأثرها فى الدراسات البلاغيـــة ص ٤١٧ نشر مكتبة وهبة.

الفصل الأول

ضروب التوكيد الفعلية فى أحاديث الترغيب والترهيب

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : ضروب التوكيد الفعلية وأسرارها البلاغية فى أحاديث الترغيب .

المبحث الثانى : ضروب التوكيد الفعلية وأسرارها البلاغية فى أحاديث الترهيب .

المبحث الأول

ضروب التوكيد الفعلية وأسرارها البلاغية

فى أحاديث الترغيب :

الرسول ﷺ بعث هاديا ومعلما للبشرية ، والمعلم يستخدم فى سبيل توصيل ما يريد تعليمه لتلاميذه كل وسيلة من شأنها تعينه على توصيل معلوماته ومعارفه إليهم بحيث تتقرر وتثبت فى أذهانهم بيسر وسهولة .

ولا شك أن للإشارات والحركات والأفعال دلالة عميقة فى إيضاح المعانى وترسيخها فى النفس ، لأن النفس تأنس بالأشياء المحسوسة ، وبها تتعلق وتصدق أكثر مما هو معقول . ودارس الحديث النبوى الشريف يرى من ذلك الشىء الكثير الذى يدل على اهتمامه ﷺ البالغ بوسائل الإيضاح فى تعليم أمته . حيث إن شغل الحاسة مع العقل تحول التلميذ بكل ما فيه إلى المعلم الحريص على سيطرته فى درسه ، ثم إن الفعل قد يكون قبل العبارة لافتا ومشوقا ، فإذا تبعه البيان ازداد الغرض تأكيداً وتقرراً لدى المتلقى لا يسهل فى العادة نسيانه ، فإذا ظن به النسيان كذبت الظن المناسبة الخفيفة من فعل أو إشارة أو حركة التى سرعان ما تبرزه جليا كيوم تلقيه .

وهذه نماذج من تلك الوسائل التى رافقت حديثه الكريم ﷺ فى مقام الترغيب .

الحديث الأول :

عن أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ إن أحداً جبل يحبنا ونحبه " فى رواية للشيخين أنه ﷺ أقبل حتى بدا له أحد ، فقال " هذا جبل يحبنا ونحبه " فلما أشرف على المدينة قال : اللهم إنى أحرّم ما بين جبليها مثل ما حرّم إبراهيم مكة . اللهم بارك لهم فى مدهم وصاعهم " .(١)

---

(١) ينظر تيسير الوصول إلى جامع الأصول ج ٣ص ٢٨٤ لابن الديبع الشيبانى مطبعة الحلبى .

فى هذا الحديث الشريف سلك رسول الله ﷺ فـــى حـــب هـــذا المكـــان والترغيب فى زيارته والاستئناس بالنظر إليه ، والقرب منه والـــــتردد إليـــه . طريقة التقرير والتأكيد الفعلية ، فلم يقل : أحد جبل يحبنـــا ونحبـــه إلا عندمـــا ظهر له الجبل ، واقترب منه ﷺ عند عودته إلى المدينة ، واستخدم اسم الإشارة (هذا) الدال على قرب المشار إليه – كما جاء فى روايـــة الشـــيخين ليلفـــت أصحابه للنظر إليه كى ترتبط بأفكارهم هذه الصورة ، وهذا الموقـــف لـــيزداد تعلقهم به كلما مروا به أو ذكروا قوله ﷺ ، فإن الفعل قبل العبارة قـــد يكـــون لافتا . ومشوقا .

وجبل أحد من الأشياء الجامدة ، والأشياء الجامدة والأمكنـــة والأزمنـــة وغيرها من الموجودات قد ترتبط بنا ارتباط الحب والصداقة كما لو كانت أناساً عاقلين ، أو ارتباط البغض والعداوة كما لو كانت غرماء ظالمين ، بيننا وبينـــها كثير من الصلات ، فربما أدركتنا عندها الســـعادة بـــالأمل الباســـم والرجـــاء الحبيب ، التقينا معها بالأحباء فى ساعة صفو هانئة استرحنا فيها مـــن عبـــث الحياة بقلوبنا ، بادتنا فى أفيائها العبرة فاتصلنا بعد غربة الروح ، وحيرة النفس بهادى الطريق ، وباب المتاب ، أودعنا ترابها الأحباء وغيبنا الأصفياء ، وقفنـــا فيها مواقف الوداع وسفحنا عبرات الحنين ، أو دهمتنا عندها الكوارث ، وفاتتنا السعادة ، غربت عنا شمس الآمال ، فعشنا نتخبط بينها فى الظلام . ذكريـــات وذكريات تصلنا بالأشياء ، فإذا بنا نحدثها ، ونزيد فنصغى إليها كأنما تحدثنـــا ، ثم ننتقل عنها فنحكى حوارها معنا .

إنه فيض إحساسنا بها انتقل إليها منا ، آية الزيادة فى الحب ، فتشخصها نابضة بالحياة ، جياشا بمثل ما نجد قبلها من عاطفة ووجدان . والمدينة أهلـــها ورباعها ودروبها ، وشعابها وجبالها ورباها ، آورت الرسول ﷺ ونصرتـــه ، وأعز الله بها الدين ، وحمى الرسالة ، وحصن الدعوة ، فكل ذلك منها حبيـــب

إليه علية الصلاة والسلام ، وأحد جبل ، والجبال أول ما يطالع القادم ، وهـــى البواكير لرؤية عين القاصد ، ويتنزل عندها الشوق ، ويستهدف وجهها الحنين ، فإذا أحب الـــرسول ﷺ أحداً لهذه المعانى الإنسانية ، أولا لأسرار سواها غيبيـــة فلا عجب لهذا الحب ، وإذا أضفى على جبل أحد ما زاد من حبه له الرؤيـــة ، ولا كذب فى هذه العبارة ، لأنها لغة الحب ، وبيان العاطفة التى لا يغنى غنـــاءه تعبير الواضع للفظ لنقصه فى الدلالة .

وقد أفاد تعبير رسول الله ﷺ - هذا جبل يحبنا ونحبـــه ... إلـــى آخـــر الحديث . قمة التذوق ، وسلامة الوجدان وصحة العاطفة فيما يعود بالخير على الدين ويزيد حبا للمدينة وينزع من قلوبهم ذكرى الهزيمة ، ووفاء للأنصـــار ، لأن حب الدار من حب الجار ذلك الذى فاض منه الحب لرسول الله ﷺ علـــى الجماد فأحبه .

وإذا كان الرسول ﷺ سلك فى إفادة تأكيد المعنى وتقريره أحـــد وســـائل الإيضاح وهى كما ذكرنا -- لفت نظر أصحابه عند رؤيته جبل أحد إلى التوجـــه بالنظر إليه عن طريق إشارته إليه ﷺ ، فإنه أيضا زاد من تأكيد المعنى وتقريره صورة المجاز بالاستعارة التى شبه فيها الجبل بالمحب بدلالة إثبات الفعل لـــه وإسناده إليه ، وهذا الإسناد هو الذى يسبح بالخيال ، ويذهب به يســـتبطن مـــا وراء العبارة لأنه بلفظ مُوحٍ بعيد الغور ، ومثل هذا الصنيع عند البيانيين ينحـــلّ إلى استعارتين : يسمون أولهما المكنية (١) ، لأنها دلالة فعل الحب المسند إلـــى الجبل فى العبارة على الإنسان المحب دلالة التلازم على الملـــزوم ، ومســـوغ هذا الإسناد مشابهة الجبل للمحب المحذوف مبالغة فى اتصافه بصفته حتى لـــم يفترق عنه ، ويسمون ثانيتهما التخيلية (٢) ، وهى إثبات فعل المحب المشبه بـــه

---

(١) ينظر شروح التلخيص ج ؛ ص ١٥٠ .

(٢) ينظر : المرجع السابق ج ؛ ص ١٥٢ .

للجبل المشبه ، لأنها تخيل للسامع إنسانية الجبل وحبه ، وتكسبه ما لا يمكن أن يكون له على سبيل الحقيقة .

هذه الزخيرة من المدلول النفسى أفادتها هذه الاستعارة . إلا أن الشريف الرضى قد أقر المجاز فى الحديث ، ولكنه جعله مجازا مرسلا ولاحظ فيه علاقة المجاورة أو المحلية .

انظر إليه يقول : " هذا القول محمول على المجاز ، لأن الجبل على الحقيقة لا يصح أن يَحبَّ ولا يُحبَّ إذ محبة الإنسان لغيره إنما هى كناية عن إرادة النفع له أو التعظيم المختص به على ما بيناه ... وكلا الأمرين لا يصح على الجماد لا لتعظيم المختص ، ولا النفع العائد عليه ، فمستحيل أن يعظم أو يُعظم ، أو ينفع أو ينتفع به ، فالمراد إذا أن " أحداً " جبل يحبنا أهله ، ونحن نحب أهله ، وأهله هم أهل المدينة من الأنصار أوسهم وخزرجهم وغير خاف حبهم النبى عليه الصلاة والسلام ، وحبه لهم ، وتعظيمهم له ، وإعظامه لقدرهم .(١)

ولم يرتضى عز الدين كمال ما ذهب إليه الشريف الرضى من حمل الحديث على المجاز المرسل وما علل به ، ورجح حمل ما فى الحديث على الاستعارة إذ يقول : " لا يصح أن يُحَبَّ ولا يَحبُ مبنى على تفسيره الحب بالكناية المذكورة ، وهذا أمر لا يلزم ، فالحب ميل القلب إلى المحبوب من إنسان وغيره ، وإذا لم يصح من الجبل فلا تتصور عدم صحته من الإنسان للجبل لمزايا تُميل إليه القلب ، وفى الحديث : "حبك الشىء يعمى ويصم" دلالة على تعميمه، والله يقول: ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ (٢) والإيمان ليس الإنسان ... ويقول : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ (٣)

---

(١) المجازات النبوية للشريف الرضى ص ٢٣ .

(٢) سورة الحجرات : الآية (٧) .

(٣) سورة الإنسان : الآية (٢٧) .

﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ (١) فهل كل هذا حب مجازى لأنها أشياء لا تصح أن تحب لنفع أو تعظيم، ثم قوله بعدم صحة التعظيم والانتفاع محجوج بما كفلنا من تعظيم الأماكن والأوقات والحرمات ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ (٢) ﴿ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ (٣) وقد عظم الله أموراً كثيرة ، فكيف لا يصح تعظيم ما عظم الله ؟ لقد أكثر من تعظيم الأجر والفوز والفضل والقرآن ، ووصف به الطود والكرب والنبأ والقول والبهتان . بل زاد فذكر بصيغة التفضيل بعض الدرجات والأجور فقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ ﴾ (٤) . ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا ﴾ (٥) وقد خطب النبى ﷺ أصحابه فقال : " ألا أى شهر تعلمونه أعظم حرمة ؟ .. ألا أى بلد تعلمونه أعظم حرمة .. ؟ ألا أى يوم تعلمونه أعظم حرمة " . (٦)

ثم نراه يقول : " إن تخريج العبارة على الاستعارة أوقع ، والتصوير بما لهذه العاطفة أروع . (٧)

وإنى أرجح ما ذهب إليه الدكتور عز الدين كمال لما أبداه من فوائد وأسرار لحمل العبارة فى الحديث الشريف على الاستعارة دون المجاز المرسل . أضف إلى ذلك أن الرسول ﷺ أراد أن يحبب أصحابه فى هذا

---

(١) سورة الفجر: الآية (٢٠) .

(٢) سورة الحج : الآية (٣٠) .

(٣) سورة الحج : الآية (٣٢) .

(٤) سورة التوبة : الآية (٢٠) .

(٥) سورة الحديد : الآية (١٠) .

(٦) ينظر تيسير الوصول ج ١ص ٢١ .

(٧) ينظر : الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية ص ١٧٤-١٧٥ .

المكان بعد ما حدث لهم فى غزوة أحد لأن ما حدث كان فى الحقيقة نصـــر لا هزيمة .

الحديث الثانى :

عن سهل بن سعد ﷺ قال : قال ﷺ : " أنا وكافل اليتيـــم فـــى الجنـــة هكذا ، وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما " . ([1])

اليتيم : هو الصغير الذى مات أبوه ، واليتيم فى الناس من قبـــل الأب ، وفى البهائم من جهة الأم ، وكافل اليتيم : القائم بأموره ، والراعـــى لشـــئونه . والسبابة : الإصبع التى تلى الإبهام ، وسميت بذلك لأنه يسب بها الشـــيطان ، ويقال له السباحة .

فرج بينهما : فرق بينهما : إشارة إلى أن بين درجة النبى ﷺ فى الجنـــة وكافل اليتيم قدر تفاوت ما بين السبابة والوسطى ، وفى روايـــة : كـــهاتين إذا اتقى : أى أتقى الله فيما يتعلق بحق اليتيم .

وبالنظر فى هذا الحديث الشريف نجد أن الرسول ﷺ قد حث على كفالـــة اليتيم ورعايته ، ومراعاة شئون حياته ، لأنه فى حاجة ماسة لمن يحـــن إليـــه ويعطف عليه ، ويرحم حاله ؛ وذلك لضعفه ، وقلة خبرته بأمور الحياة وفقـــد العائل له ولكى يشعر باهتمام المجتمع له فيشب وقد تأصل فـــى قلبـــه الحـــب لإخوانه ومجتمعه فيصبح عضوا صالحا فى وطنه .

وقد أكد رسول الله ﷺ الدعوة إلى كفالة اليتيم ، والترغيب فيها بما بشـــر به كافل اليتيم من دخوله الجنة ، وقرب منزلته فيها من منزلته ﷺ . وزاد فـــى الترغيب فعله ﷺ حيث أشار بالسبابة والوسطى مبينا وموضحا درجـــة كـــافل اليتيم فى الجنة بما يؤكد ويقرر قربها من درجة الرسول ، قال ابـــن بطـــال :

([1]) الحديث رواه البخارى فى الطلاق (باب اللعان) وفى الأدب ج ١٠ ص ٣٦٥ .

حق على من سمع هذا الحديث أن يعمل به فيكون رفيق النبى ﷺ فى الجنـــة ، ولا منزلة فى الآخرة افضل من ذلك . (١)

فهذه الإشارة من رسول الله ﷺ – كما ذكرت – لون من ألوان التـــأكيد والتقرير الفعلى الذى استخدمه الرسول ﷺ فى الترغيب فيما يدعو إليه .

وحول معنى الحديث يقول الدكتور كمال عز الديـــن : جعـــل الرســـول الكريم حاله مع كافل اليتيم مشبها ، وجعل حال السبابة والوسطى مشـــبها بـــه ليدل بالمقرر المحض ، والمؤكد المشاهد ، على تأكيد اجر الكافل وتقرره .

واللطائف التى فرقت على الطرفين جديرة بالإعجاب ، وحقيقة بـــالنظر، فالمعية أو المصاحبة فى جانب المشبه إرصاد إلى جنس الجزاء الذى يدل عليـــه كمال العبارة ، وجذب لانتباه المخاطب إلى أن يسعد بهذه النعمة المثلـــى ، ثـــم التعجيل بأصل المجازاة – وهو الوجود فى الجنة – توثيق لمفهوم هذه المعيـــة المستفادة من الواو أو المصاحبة ،وليست هى الغاية أو الممثل به أو المسند فـــى العبارة ، بل هى تابعة المقدم عليه لتعجيل المسرة ، أمـــا الجـــانب المحمـــول والممثل به فقد صور صورتين :

إحداهما لفظية ، والأخرى ثعثية ، وكانت اللفظية اسم الإشارة (هكـــذا) المفتتح بحرف التنبيه ، والذى توسطه أداة التشبيه ، ووقـــع هـــو بعـــد ذلـــك بالموضوع للقرب ، ليلفت الأذهان بشدة إلى الصورة الشاخصة القريبـــة مـــن العين ، المرافقة للنطق ؛ وهى السبابة والوســـطى ، الممتدتـــان مـــع قبـــض غيرهما لتمام التمييز ، والمفترق ما بينهما لكمال تمكن النظر ،ولتأكيد رؤيـــة الجوار بلا فارق محس ، وتقرر مشاهدة الأصل الذى بسقتا منه ، رمـــزا إلـــى القرب الروحى الذى يجمع بين الرسول وبين هذا الإنســـان الرحيـــم ، وإلـــى

---

(١) ينظر : نزهة المتقين شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ج ١ ص ٢٢٦.

القرب الروحى الذى يجمع بين الرسول وبين هذا الإنسان الرحيم ، وإلى طفولة النبى وحبه المكافئ للكافلين ؛ وفاء لمن شاركوهم فى البذل ورأفة بمن شـلركوه فى الفقد ، هل يحمل اليتيم إلى قلبك صورة إصبعيه الشريفتين تقترنـــان باســم الإشارة فتكره هواك ، وتؤثر جوار الحبيب فى الجنة بإكرام اليتيم ... ؟ ([1])

الحديث الثالث :

من حديث لأبى ذر ﷺ إن خليلى أبا القاسم ﷺ دعانى فأجبتـــه فقـــال : " أترى أحداً ؛ فقلت أراه : ما يسرنى أن لى مثله ذهبا أنفقه كلـــــه إلا ثلاثـــة دنانير ".

وفى رواية : " كنت أمشى مع رسول الله ﷺ وهو ينظر إلى أحد فقال : ما أحب أن يكون لى ذهبا تُمسْ على ثالثة ، وعِنْدى منه دينار إلا ديناراً أرصده لِدَيْنٍ إلا أن أقول به فى عباد الله هكذا حثا بين يديه ، وهكذا عن يمينه ، وهكـذا عن شماله ([2]) أخرجه الشيخان .

هذا الحديث الشريف يفسره قوله ﷺ : " يقول ابن آدم : مالى مالى وهـل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست . فأبليت ، أو تصدقـــت فأمضيت ؟ " ([3])

وقد سلك الرسول ﷺ فى تثبيت المعنى وتقريره فى نفس المخاطب هـــذا السؤال عن رؤية جبل أحد الذى وجهه لأبى ذر ﷺ وهو يرافقه وفى الســـؤال تنبيه واستحضار للفكر ، وفـــى مفاجأة المسؤول بالسؤال تنشيط للذهن ، وهـــو

([1]) ينظر : الحديث النبوى الشريف من الوجه البلاغية ص ١٥٩ .

([2]) الحديث رواه البخارى فى الرقاق (باب المكثرون هم المقلون) وباب ما أحب أن لى مثل أحد ذهبا والاستقراض والاستئذان ج ١١ ص ٢٢٤ ، ٢٢٧ .

([3]) ينظر : تيسير الوصول : ج ١ ص ٨١ .

سؤال عن معلوم للمتكلم والمخاطب يستدعى أن يكون وراءه سر لازم على التقرير بالجواب ؛ والسر هو أن يتقرر أمر المرئى ضخامة واتساعا فى نفس أبى ذر ؛ ليقاس عليه قدره من الذهب الذى لو فرض أن يملكه الرسول ﷺ ما سره أن يملكه فينفقه فى متع الحياة وملزاتها من مأكل ومشرب وملبس وخلافة مما تستهواه النفس وترغبه ، ولكن يحب الرسول ﷺ لو فرض أن يملكه أن ينفقه فى وجه مدخر عند الله . درهم يسد به الرمق مما يقتات به ودرهم يستر به العورة ، ودرهم يبذله فى سبيل الله ، إذ ليس ككنزه ، وعليه عذابه إن لم يؤد حقه وهو ذريعة الشيطان إن أنفقه فيما لا يرضى الله ،وعليه عقاب إنفاقه .

وفى الحديث دعوة مؤكدة إلى الزهد والإقلال من اكتناز المال ، وحرص الإسلام على تصحيح المفاهيم والمبادئ السائدة ، كما أفاد الحديث أن الذى يتركه الإنسان من مال وإن كان فى الوقت الحاضر منسوبا إليه فإنه باعتبار انتقاله إلى وارثه يكون منسوبا له ، فنسبته للمالك فى حياته حقيقة وللوارث مجازية ، وبعد الموت تصير للوارث حقيقة ، كما أفاد أيضا الحث على ما يمكن تقديمه من المال فى وجوه الخير ليجد ثواب ذلك فى الآخرة .

الحديث الرابع :

عن أبى هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ : " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا . ثم شبك بين أصابعه " (١) . رواه البخارى ومسلم .

هذا الحديث دعوة للمؤمنين أن يتعاونوا على البر والتقوى ، ولا يتعاونوا على الأثم والعدوان ، فإذا ما ساد بينهم هذا السلوك صاروا قوة عظيمة ، لا يقدر على هزيمتها أعداؤها ، شأنهم فى ذلك شأن البنيان المتين الذى يقوى

---

(١) ينظر : المجموعة النجدية : ص ٣١٠ من كتاب الكبائر ، وكنوز الحقائق فى حديث خير الخلائق للإمام عبد الرؤف المناوى بهامش الجامع الصغير للسيوطى ج ٢ ص ١٢٤.

بعضه بعضا . وقد قوى هذا المعنى وقرره هذا التشبيه الجميل الذى عبر به رسول الله ﷺ حيث شبه حال المؤمنين عندما يسود بينهم الحب والتعاون والتآلف والترابط والتراحم ، كُلٌّ منهم يحث بما يحث به الآخر فيفرح لفرحه ويجزن لحزنه ، ويتألم لألمه بحال البنيان المتين المتماسك الذى لا تزعزعه عوامل الطبيعة بل يظل شامخا لا يتأثر بأى شيء منها ، فالأسلوب فيه التشبيه بالمحسوس ، ومن المعروف أن إخراج المعانى العقلية فى صورة الحس أشد تمكينا لها فى النفس وتقريراً فى البيان ، لأنها بذلك الوجه تتشخص وتتجسم ، فتأنس بها النفس وتسكن .

وقد زاد تقرير هذه المعانى وتأكيدها فى النفس فِعْلُ رسول الله ﷺ حين شبك بين أصابعه . هذه الصورة الفعلية تعد دليلا وبرهانا لما دعى إليه الرسول ﷺ المؤمن فى صدر حديثه ، فإن فى ضم اليد إلى اليد الأخرى وتشابك الأصابع بعضها ببعض دعوة فعلية وتوجيه عملى لما ينبغى أن يكون عليه المؤمنون فى حياتهم وعلاقاتهم فيما بينهم فيصبحون قوة تهابها أعداؤهم .

وهناك فى الحديث ملحظ وهو أن الرسول ﷺ عبر باللام دون مع فى قوله ﷺ " المؤمن للمؤمن " ولم يقل المؤمن مع المؤمن ، إشارة إلى أن المؤمنين كلما زاد عددهم وضم أحدهم للآخر وترابطوا فيما بينهم قويت شوكتهم وعظمت قوتهم كالبنيان كلما زادت فيه لبنة زادت صلابته وقوته . ففى الحديث دعوة إلى تماسك جميع المؤمنين فى مشارق الأرض ومغاربها تحت راية واحدة .

المبحث الثانى

ضروب التوكيد الفعلية وأسرارها البلاغية

فى أحاديث الترهيب

الحديث الأول :

عن بريدة ﷺ : قال قال رسول الله : ﷺ " هل تدرون مـــا مثـــل هـــذه وهذه ؟ ورمى بحاصتين - قالوا الله ورسولـــه أعلـــم : قال : هـــذاك الأمـــل وهذا الأجل . " (١)

هذا الحديث تكلم فيه رسول الله ﷺ عن أمل الإنسان وأجله بأسلوب فـــى قمة البلاغة حيث أستهله بجملة استفهام نيطت بعمل حسى مشاهد ،والسؤال بـــها عن مجهول مقيس على هذا المتميز المعلوم : حصاتين رمى بإحداهمـــا قريبـــا وبالأخرى بعيداً .

وسيلة إيضاح حسية جذبت النظر إلى فعله عليه السلام ، تلاها السـؤال عن الممثل له المجهول زيادة فى التشويق إلى طلبه ومعرفته .

فهل ينسى الصحابى الشاهد مكان الحصاتين قربا وبعداً ، والسامع سؤال النبى ﷺ فى حرص ؟ هلى ينسى أن المشبه بالحصاة القريبة الأجل فى قربـــه ،وبالحصاة البعيدة الأمل فى بعده ؟

إن سؤل رسول الله ﷺ الذى استهل به كلامه فى حالة رميه بالحصـــاتين كان له عظيم الأثر فى تثبيت المعنى وتقريره ، فإن النفـــس بالمشـــاهد أكـــثر إطمئنانا وأنساً .

---

(١) ينظر : تيسير الوصول إلى جامع الأصول ج ٤ ص ٩٩ .

إنه ﷺ يصور لنا سعة خيال الإنسان حتى تضل الحقيقةُ فـــى متاهتـــه ، وهيامه بالآمال الشاردة ، والموت أدنى من شراك نعليه ، وما أدق البيان الكريم فى اختيار لفظى الإشارتين مطابقتين للبعد المسافى (هذاك) للأمل و(هـــذا) للأجل ! وأشد من ذلك دقة إلحاق إشارة الأمل بكاف الخطـــاب لشـــدة وعـــى المخاطب له ، وتمثله حاضراً ، وترك ذلك مع الأجل مطابقة لعدم التنبُّه إليـــه ، لغياب صورته فى زحمة الآمال .

وقد حمل معنى هذا الحديث حديث آخر اســـتخدم فيـــه رســـول الله ﷺ وسيلة التأكيد والتقرير الفعلية للترهيب من طول الأمل والحرص على التعليـــق بالدنيا ، والسكون إليه ، وعدم التفكر فى الموت وقرب الأجل روى عن أنـــس ﷺ قال : خط رسول الله ﷺ خطا وقال : هذا الإنسان ، وخـــط جانبـــه خطـــا وقال : هذا أجله ، وخط آخر بعيداً عنه وقال : هذا الأمل فبينما هو كذلـــك إذا جاءه الأقرب . ([1])

الحديث الثانى :

عن أبى بكر ﷺ قال رسول الله ﷺ : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ ثلاثـــا . قلنا : بلى . قال : الإشراك بالله وعقوق الوالدين ، وقتل النفس . وكان متكئـــا فجلس فقال : ألا وقول الزور ، وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتـــى قلنـــا سكت ".([2])

استهل رسول الله ﷺ حديثه بأداة الاستفهام " الهمزة " الداخلة علـــى " لا " ليثير بسؤاله انتباه المخاطبين ، وتشويقهم إلى معرفة المسؤول عنه " ألا أنبئكم "

([1]) ينظر تيسير الوصول إلى جامع الأصول ج ١ ص ٤٣ .

([2]) ينظر : صحيح البخارى فى كتاب الشهادات " باب ما قيل فى شـــهادة الـــزور ، وغـــيره ج ١٠ص ٣٤٢ ، ٣٤٥ ، ومسلم فى الإيمان (باب بيان الكبائر وأكبرها) (٨٧).

ليتمكن ويستقر فى نفوسهم . ثم إن فى تكريره ﷺ السؤال ثلاث مـــرات – ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ زيادة تشويق لمعرفة نوع الخبر وتأكيد له فى النفوس عند سماعه ، فهو بهذه الصورة تأكيد على تأكيد وتقرير على تقرير ، وكيف لا وهو أمر جد خطير ؛ إنه يتعلق ببيان أكبر الذنوب وأعظمها عقابا عند الله .

فأكبر الكبائر : الذنوب الكبيرة التى ورد فيها وعيد شديد فـــى القــرآن الكريم أو السنة ، وليس هناك ذنب أعظــم مـــن الإشــراك بــالله . وعقــوق الوالدين ؛ بأن يفعل مع أحد والديه ما يتأذى به من فعل أو قول . وقول الــزور وهو الكذب على غيره متعمد وكذا شهادة الزور .

ونظرا لخطورة هذا الأمر فقد اشتمل قول رســول الله ﷺ علــى عــدة مؤكدات خلاف ما ذكرنا منها : فعله ﷺ فقد كان عليه الصلاة والسلام متكئــا فجلس عند الأمر الثالث وهو قول الزور ، وكان لفعله هذا دلالة عميقــة فــى ترسيخه فى نفوس السامعين وتقريره .

ومنها : استهلال هذا الأمر بأداة الاســتفتاح التــى زادت مــن انتبــاه المخاطب ولفت نظره ومنها أيضا : تكرير هذا الأمر لدرجة أن أشفق الصحابة على رسول الله ﷺ وتمنوا سكوته بقولهم " حتى قلنا : ليته سكت . "

حقا إنه معلم البشرية ، وهادى الإنسانية . مــا دعاهــا إلا بمــا فيــه سعادتها ، وما نهاها إلا عن كل ما فى شقاوتها .

لقد أفاد هذا الحديث أن الذنوب تتفاوت بحسب مفاســدها . كمــا أفــاد الترهيب من عقوق الوالدين وشهادة الزور ، وأعظمها ذنبا الإشراك بالله ، ثــم قول الزور ، كما أفاد أيضا مدى محبة الصحابة للنبى ﷺ وشفقتهم عليه .

إن هذه الأمور من أكبر الكبائر لما يترتب عليها من مفاســد جســيمه ، فالإشراك بالله بهتان وافتراء على الله ، وذلــة وخضــوع لغــير الله وطغيــان

وطواغيت ستتحكم بالناس كما تشاء ولا يغفر الله لصاحبه . قال تعـــالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ .(١)

وعقوق الوالدين نكران للجميل ونسيان لحق الوالدين ، واحتقار ، لأصالة الإنسان .

وأما شهادة الزور فهى مصدر بلاء وانحراف وجور وشر كبير ، وكمـا قيل : فإنها تدع الديار خاوية على عروشها . لذا كررهـا رســـول الله ﷺ ، وكان متكئا فاعتدل عند التحذير منها .

الحديث الثالث :

عن ابن عمر ﷺ قال : أخذ رسول الله ﷺ بمنكبى فقال : " كـــن فـى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل " . وكان ابن عمر رضـــى ﷺ يقـول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتـك لمرضك ، ومن حياتك لموتك . (٢)

إن العاقل هو من أتخذ الدنيا مزرعة للآخرة ، ومعبرا إليـــها ، وجعـل الآخرة مبلغ همه ، ومنتهى أمله وسعى لها سعيها وهو مؤمن ، وعاش فى الدنيا عيشة من ليس له فيها رغبة ، وجعلها بلغة تقربه من الجنة وتبعده عن النـار ، وكـان المال وكل شىء من زخارف الدنيا وزينتها فى نظـره ظـلا زائـلا ، وعارية مستردة ، واعتبر نفسه فى سفر دائم ، وارتحال لا ينقطع فـــهو إلـى الموت سائر إن اليوم وإن غداً – وإنَّ غداً لناظره قريب . الموت أقرب إليه من شراك فعليه .

---

(١) ينظر : نزهة المتيقن شرح رياض الصالحين ج ١ ص ٢٦٨ .

(٢) ينظر : صحيح البخارى فى الرقاق (باب قول النبى ﷺ كن فى الدنيـا ..إلـخ ١٩٩/١١ ومعنى : أخذ : أمسك ، بمنكبّى : بتشديد الياء ، إحدى الياءين ياء التثنية ، يروى بتخفيف الياء على الإفراد ،والمنكب بوزن مسجد : مجتمع رأس العضد والكتف لأنه يعتمد عليـه ، وإذا أمسيت . أى : دخلت فى المساء ، وهو لغة : من الزوال إلى نصـــف الليـل ، وإذا أصبحت : دخلت فى الصباح ، وهو من نصف الليل إلى الزوال .

وهذا الحديث يحمل وصية غالية من رسول الله ﷺ إلى سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنه خاصة وإلى أمته ﷺ عامة . هذه الوصية هى التحذير من الدنيا وعدم التعلق بها . إلا كتعلق الغريب المسافر بغير وطنه ؛ فإن الغريب وعابر السبيل لا يتعلقان فى دار الغربة بما يثقلهما عن السفر ، أو يعوقهما عن المضى ، من المآرب الحسية أو المعنوية ، زاهدان فى أكثر مما يبلغهما المحل من زاد وثوب ومركب ، لأن فى الزيادة مغرما يشق عليهما ، وإنما يحرص على مثل ذلك المقيم .

هذه حال يعرفها ابن عمر ، ويعرفها كل الناس ، لأنها من المقرر المحس ، المكرر المعلوم ، والرسول ﷺ يطلب من عبد الله بن عمر أن يكون حاله فى الدنيا شبيها بحال الغريب أو عابر السبيل فى عدم التعلق بما يثقله من متاعها الخادع الذى يعوق همته ، ويشغل قلبه عما هو أحق ، إذ الدنيا طريق غربة يفضى بكل نفس إلى دار إقامة وقرار .

ولما كان فى الدنيا وجدنا ، وعلى آثار آبائنا درجنا ، وجعل الله لنا فيها تملكا يباح ، وأوطناً تصان ، وعنها يدافع ، لم يظهر معنى الغربة للإنسان فى داره ، ولذا كانت البلاغة النبوية تقتضى فى التشبيه وضع الأداة (كأن) لحمل حال بحاجة إلى أن تتقرر على أخرى مقررة معلومة ، وهذه العبارة اقرب إلى طبيعة الناس والحياة مما لو كانت العبارة : " إنك فى الدنيا غريب أو عابر سبيل " . لأن العبارة الأولى ،والثانية تنزع هذا الحق فتصرفه صرفا ، وتجعله سفيها فى تشبثه به ، مهما كانت العلاقة بينه وبينه . ([1])

وهذه الصورة التشبيهية تترك خيال ابن عمر وخيالنا يصور لنا أوصاف الغريب وعابر السبيل عند وقوفنا من الدنيا على نوافذ الأمال وأبواب المطامع ،

([1]) ينظر : الحديث النبوى الشريف من الوجه البلاغية ص ١٤٤ بتصرف .

فتحد من جموحنا الشارد ، أو تورطنا المهلك ، وعند نظرنا إلى مـــا تعـودت الأقدار أن تسلبه منا ، فلا تحزن لفقده حزن الهالكين.

وقد أكد هذا المعنى وزاد من حرصنا على هذه الوصية فعل الرسول ﷺ بسيدنا عبد الله بن عمر حين أمسك بمنكبيه عند وصيته له ، فـــإن الصحـــابى الجليل لا ينسى هذا الموقف ، وكذا سامع الحديث . فالمرء لا يمسك إلا بمـــن يحبه ويحرص على الخير عند توجيهه وإرشاده .

ويستفاد من الحديث حب الرسول ﷺ لعبد الله بن عمر وتنبيهه إلى مـــا يقولـــه له والمبادرة إلى عمل كل شيء فى وقته ، والحـــض علـــى تقصـــير الأمل ، والترهيب من طول الأمل والركون إلى دار الدنيا ، فشأن عابر الســبيل أن يكون راضياً بكل ما يجده من عناء وتعب وجوع ونصب ، وهو يمنى نفسه بقرب العودة إلى من يجد عندهم الراحة والنعيم . كما يستفاد من الحديث أنـــه على الإنسان أن يغتنم فرصة حياته وصحته للمزيد من الطاعة ، وعدم التبـلطؤ فيها ، فإن الصحة والحياة غنيمتان للمؤمن يجب أن يستفيد منهما بأعمال الخـير فلا ينبغى أن يفرط فيما لا ينبغى فى أخرته .

الحديث الرابع :

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : " ضحك رسول الله ﷺ فقال : هل تـــدرون مما أضحك ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال من مخاطبة العبد ربه فيقول يـــا رب ألم تجرنى من الظلم ؟ فيقول بلى . فيقول : إنى أجير اليوم على نفســـى شاهداً إلا منى . فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ، والكـــرام الكـــاتبين عليك شهودا . قال : فيختم على فيه ويقال لأركانه انطقى ، فتنطق بعمله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول : بُعْدًا لَكُنَّ وسحقا فعنكن كنت أناضل .([1])

([1]) ينظر : تيسير الوصول إلى جامع الأصول ج ٤ ص ٩٩ .

يصور هذا الحديث الشريف موقفا من مواقف يوم القيامة عندما يقوم الناس لرب العالمين للعرض والحساب . موقفا يظهر فيه طبيعة الإنسان التى جبل عليها وهى كثرة مجادلته حتى مع ربه قال تعالى . ﴿ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ .(١)

وقد استهل رسول ﷺ هذا الحديث بوسيلة حسية تسترعى الانتباه وتلفت الأنظار وهى الضحك المفاجئ ، دون أن يعلم أصحابه سببه ، والمعروف أن ضحكه عليه السلام كان تبسما . وقد أفاد فعله هذا إيقاظهم ولفت أنظارهم إليه لمعرفة سبب ضحكة المفاجئ عليه الصلاة والسلام ، وبعد يقظتهم ولفت أنظارهم إليه سألهم عن أمر يجهلونه : هل تدرون مم أضحك ؟ ، زيادة فى التشويق ، واستحضاراً للقلوب ، وهم أعقل من أن يجيبوا بما لم يعلموا ، إذ هو أمرٌ مرجعه إليه .

وقد أفاد كل هذا تقرير الخبر وتوكيده فى نفوس سامعيه ، فالقصة هى قصتهم ، وهى أيضا : قصة كل البشر ، وهى مهمة للغاية ، لأنها مصير محتوم لكل حى ، ينبغى الأعداد له قبل المباغتة ، فإيقاظ المخاطب بتلك الطريق لها دقة تبلغ المعجزة فى طرق التعليم ، وهى فضلا عن ذلك قصة الغيب المرتقب ، فهى أولى بأن يمهد لها هذا التمهيد المؤنس للنفس ، لتنزل منزلة العظة والأناة .

وقد أفاد هذا الحديث : الترهيب من يوم الحساب ، والإعداد له ، فإن الله لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء . وأن الإنسان سيحاسبه على كل ما قدمته يداه ، يوم تبلى السرائر فما له من قوة ولا ناصر .

---

(١) سورة الكهف : الآية (٥٤) .

الفصل الثانى

ضروب التوكيد اللفظية فى أحاديث الترغيب والترهيب

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : ضروب التوكيد اللفظية وأسرارها البلاغية فى أحاديث الترغيب .

المبحث الثانى : ضروب التوكيد اللفظية وأسرارها البلاغية فى أحاديث الترهيب .

المبحث الأول

ضروب التوكيد اللفظية وأسرارها البلاغية

فى أحاديث الترغيب

أشرت فى التمهيد عند الحديث عن أهم ضروب التوكيد إلى أن التـــأكيد اللفظى هو أظهر أنواع التوكيد وله طريقان .

الأول : أن يكون بإعادة الجملة أو شىء منها على الوجه الذى يلمـــس المتكلـــم حاجة المعنى إلى إعادته .

الثانى : أن يكون بأداة وضعتها اللغة أو العرف البلاغى لإفادتـــه .وفـــى هـــذا المبحث سأقوم بعرض أمثلة من البيان النبوى تمثل كلا الطريقين

الطريق الأول

إعادة الجملة الأولى أو شىء منها

تعد الإعادة والتكرار – كما أشرت – سنة بيانية من سنن العرب ، جاء عليها القرآن الكريم والحديث الشريف بقصد العناية والاهتمام بـــالأمر المـــراد إبلاغه .

وقد صرح بهذه الغاية التى يقصد إليها معلم البشرية ﷺ أنس بن مـــالك رضى الله عنه إذ يقول : كان رسول الله ﷺ يعيد الكلمة ثلاثا لتعقل عنه . ([1])

ويضع صحيح البخارى باب إعادة الحديث بهذا العنوان " باب من أعـــاد الحديث ثلاثا ليفهم عنه " فيذكر الخصيصية والعلة ، ويزيد الخطابى فيقـــول : إعادة الكلام ثلاثا إما لأن من الحاضرين من يقصر فهمه عن وعيـــه فيكـــرره

([1]) ينظر : تيسير الوصول إلى جامع الأصول ج ١ ص ١٩٨ .

ليفهم ، وإما أن يكون القول فيه بعض الأشكال فتتظاهر بالبيان ، وقال أبو الزناد : أو أراد الإبلاغ فى التعليم والأجر فى الموعظة . ([1])

وهذه مجموعة من أحاديث رسول الله ﷺ تمثل هذه الظاهرة فى مقام الترغيب .

الحديث الأول :

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ " ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع الدرجات ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ،وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط " .([2])

يعرض الرسول ﷺ على أمته ممثلة فى أصحابه ، معرفة أمور بسببها يمحو الله الخطايا ويرفع الدرجات ، ليستثير كوامن شوقهم ،وليبعث عظيم انتباههم ، وهم أشد الناس خوفا من صغير الذنب فضلا عن كبيره ، وأعظمهم حرصا على الصعود فى معارج الجنات .

والرسول ﷺ بفطنته يستطلع هذا الانتباه فى التفاتهم وجوابهم ، فيبين لهم أن هناك أمور ثلاثة يعتقد أنها يسيرة تكفل تلك الغاية العليا التى يتطلع إليها كل مؤمن حريص على الفوز برضى الله .

وقد يكون أمر الصحابة أنهم لم يجدوا فيما نبههم إليه جديدا ، ولم يذهب بهم عنه بعيدا فيفتر الأثر فى نفوسهم ، ولكن النبى ﷺ يرشدهم بما لا غاية فوقه من التقرير والتأكيد إلى فعل هذه الأعمال مع يسرها ، ليرسخ فى العقيدة ، ويظل حاضراً فى القلب ، وكأنه يقول ﷺ : إذا عرفتم ذلك فذلكم هو الرباط .

ورباط الخيل كناية عن عسكرة الجيش استعداداً للمفاجأة بالغزو أو الدفاع عن النفس والدين والوطن .

([1]) ينظر : عمدة القارئ ج ٢ ص ١١٥ طبعة منير الدمشقى .

([2]) الحديث رواه مسلم فى كتاب الطهارة (باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره) ٢٥١ .

ما أدق التمثيل فى الحديث الشريف ، وما أدق تعبيره ، إن اسم الإشـــارة — فذلكم — يدل على التفخيم ،وزيادة فى تنبيه المخاطبين لإفادتها اختصـــــاص الإشارة به إليهم ، ثم وقوعه مسند إليه ، والمسند معرف باللام (الرباط) يفيـــد قصره عليه ، وكأنه ﷺ : لا رباط إلا ذلكم المشار إليه لكمال المعنى فيه ولئـــلا تتوهم المجازفة فى الأخبار عنه بهذا الخبر مع الجهاد المسلح من فضل ظاهر ، قطع تكرار العبارة كل وَهْم ، وأكد ذلك المعنى تأكيداً لا مساغ للشك بعده . ([1])

وبالنظر فيما دل عليه الرسول ﷺ وحث عليه من إحســـان الوضـــوء ، وكثرة الذهاب إلى المساجد وانتظار الصلاة فيها ، ورباط الجند للجهاد فى سبيل الله تتجلى أمامنا فصاحة رسول الله ﷺ وبلاغته ، وحسن ربطه بين المعانـــى ، حيث إن رباط الجيش فرض كفاية ، والصلاة بأوقاتها فرض عين ، وإن ربـــاط الجيش فترة لها غاية ، ورباط المؤمن للصلاة مد الأجل .

إن رباط الجيش لحرب عدو وهو الإنسان أخو المحارب فـــى الجنـــس وعساه أن يسلم أو يستكين ، ورباط المؤمن للصلاة لحرب عدو غـــير ظـــاهر يرانا ولا نراه : هو الشيطان الذى اخرج الإنسان من الجنة فدلالـــهما بغـــرور وأقسم : لأضلنهم أجمعين ، وجاهر الله متوعداً : " ولا تجد أكثرهم شـــاكرين " ثم إن رباط الجيش عبادة فعليه ، ورباط المؤمن للصلاة عبادة فعليـــه أيضـــا ، وصله قلبيه ، وذكر وقرآن ، وتتفرد ولا ينفرد عنها رباط الجيش ، فهى أكـــد فى مفهوم العبادة .([2])

والحماس للغزو طبيعة فى النفس لغير دين ، ولأتفه سبب ، ويشارك فيه الحيوان الإنسان ، ولذا فهو من هوى النفس وإن لم يكن دينا ، وعـــادة النفـــس الكسل عن الطاعة والفتور عن الصلاة والتسويف فى الأداء ، لإلقاء الشـــيطان

([1]) ينظر : الحديث النبوى الشريف من الوجه البلاغية ص ٩٣ بتصريف يسير فى العبارة .

([2]) ينظر : نزهة المتقين شرح رياض الصالحين ج ٢ ص ٣٧ .

فى أمنية الإنسان عفو الله وصفح الله ، فإسباغ الوضوء على المكاره قمع له يحتاج إلى العزيمة والحزم ، لما فى لفظ الإسباغ من دلالة على الاستيعاب ، ولما فى الوضوء من تكرار بتكرار الصلوات ، ولما فى الجار والمجرور (على المكاره) من انتصار للنفس على انتحال الأسباب الداعية إلى التقصير ، وكثرة الخطأ إلى المساجد دحر لوسوسة أن يخاف المؤمن الحر والبرد ويتعلل بالضيف أو الضعف فيفوته إما أداء الصلاة ، وإما فضل الجماعة وأجر الخطأ إلى المسجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة قهر للمعصية ، ونهى عن الفحشاء والمنكر اللذين هما حظ الشيطان ، وكلمة " انتظار " فى الحديث تدل على يقظة المؤمن وترقبه ما ينتظر ، ولا يترقب وينتظر إلا المهم العظيم ، ألا يكون ذلكم هو الرباط ؟ ألا يفسر هذا قوله عليه الصلاة والسلام وهو فى طريقه راجعا من إحدى الغزوات وقد ابلى المؤمنون فيها بلاء حسنا : " رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ؟ " . ([1])

إن الذى يقدر على الرباط المسلح هو الذى يعد نفسه له بمثل هذه الأمور ، وعليه فليتعلم المرابطون هذا النوع العظيم من الجهاد ليحرزوا النصر ويفوزوا بالنجاح والفلاح .

الحديث الثانى :

عن أبى هريرة ﷺ قال : جاء رجل فقال : رسول الله ﷺ من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك ؟ قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أبوك ".([2])

([1]) ينظر : كشف الخفاء ومزيل الإلباس ج ص ٤٢٤ ، ٤٢٥ .

([2]) الحديث رواه البخارى فى الأدب " باب من أحق الناس بحسن الصحبة ٣٣٦/١٠ – ومسلم فى أول البر والصلة (باب بر الوالدين وأنهما أحق به) (٢٥٤٨) .

هذا الحديث الشريف يبين فضل الآباء وحقهم على أبنائهم . فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ وهو الصحابى الجليل معاوية بن حيدة يسأله عن أحق الناس بحسن الصحبة والود والرحمة والعطف فأجابه الرسول ﷺ بقوله أمك وبعد الإجابة الأولى أراد السائل أن يعرف من يلى الأم فى زيادة الحرمة وأحقية حسن الصحبة ، فأراد ﷺ أن يقرر فى نفسه واجب حسن الصحبة للأم ، فأعاد الجواب السابق ، ولم يتوقع أنه إذا سأله للمرة الثالثة عن التالى للأم فى ذلك أن يجيبه بنفس الجواب ،ولكن هذا الذى قد كان .

ويعنى ذلك منه ﷺ وتأكيدًا لا يأتى معه غبن ، وإذا كان الله سبحانه قد سوى بين الوالدين فى خفض جناح الذل من الرحمة ، وفى الإحسان العام إليهما ، وعدم الخروج عليهما بالتأفف من حال يضيف بها الابن منهما فى قوله تعالى : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ .(١)

فقد خص الأم بالحمل كرها والوضع كرها ، وبالحمل وهنا على وهن ، ذكر الزمن الذى هو أشد عليها من عمر ولدها أجمعه ، فقال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾.(٢) وقوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ .(٣) ليبين كم فى هذه الثلاثين للأم من سهر وضنى يكفل لها – لو انفرد – أن

---

(١) سورة الإسراء : الآيتان (٢٣ ، ٢٤) .

(٢) سورة لقمان : الآية (١٤) .

(٣) سورة الأحقاف : (١٥) .

تستحق المكافأة بأعظم البر والحنان . ولذلك نرى أن تكرار اللفظ النبـوى فـى الجواب حتى ذكر ثلاث مرات كالتنبيه لهذه الثلاث : الحمل كرها ، والوضـع كرها ، والفصال وما فيه من المشاق ، فإذا لوحظ أن السائل كان يعطف جملـة السؤال بـ (ثم) تشعر من صنيعه أنه كان يريد النقلة بعيدا عن الأبوين ، ظنا منه أن عرفان حقهما أمر مفروغ منه ، فكان تصدير الجواب بنفس الأداة انتقالا بالسائل إلى مرحلة أبعد مما يعرف من حق الأم ، لأنـه أعلى وأكد من صورة عامة تدور فى خلده ، فالجنة تحت أقدام الأمهات ، كما أخبر المعصـوم فـى حديث آخر ، ليجعل أنظار قلوبنا تحت أقدامهن هضماً للنفس وخفضا للجنـاح مهما كان حظهن من نقص الثقافة ، وحظنا من علوها ، وحتى لا نؤثر عليـهن عزيزا من مال أو زوج أو ولد .

فالإجابة الأولى هى حق السائل المتعلم ، والثانيـة هـى حـق السـائل المستشرف جديدا والمشعر للمسؤول بهذا المراد ، إذا لو لم يكن كذلـك لأتـى برباط غير (ثم) كالواو أو الفاء ، والإجابة الثالثة هى حق السائل الذى بلـغ الغاية من الانتظار وإيراد الرسول ﷺ كل ذلك بالجملة المقدر صدرها إيجـازا أولا ، والخالية ثانيا وثالثا من خصيصة التأكيد بالأداة إشارة لطيفة إلى أن هـذا — وإن دق — أمر مما يجب أن يعلم ، وقد أكتفى بتصعيد واجب الأم وحقـها إلى هذا الحد بالتكرار المقرر والمؤكد لهذا المراد .

وإذا كان الأب وهو من هو فى حياة الولد وأمه وقع فى رابـع المنـازل وآخرها ، فوقعه كذلك يطبع واجب الأم السابق بطابع الجزم ، فليس فيه جموح بالخيال ولا غلو ، فالبنت الفطيم تتخذ من الدمى أولادا ، ثم يعيـش هـذا فـى خيالها أملا عزيزا ، فإذا تأخر بعد الزواج حَمْلُها شقيت بأملها إلى أن يهبـها الله إياه ، فإذا وَهِبَته كان مسكنه أحشاؤها تنال فيه من الجهد ما تنال ، فإذا طالعـها بعد الجهد والضنى تفجر له ثديها بالغذاء حنانا وعطفا ، وارتبط حسها بحسـه :

بيغامه ، وإشارته ، ونظرته فى الغضب والرضا . لذا كرر الرسول ﷺ حق الأم فى حسن الصحبة ليؤكده ويقرره فى نفس السائل ، ولم يكن رسول الله ﷺ مع هذا مغاليا فيما أوجب من جعل حقها أعلى وأكد مما سواه من الحقوق .

ويستفاد من تكرير الرسول ﷺ لفظ الأم زيادة الوصية بها لضعفها وحاجتها ، وأن إكرام القرابة ليس على درجة واحدة ، كما استدل الفقهاء بهذا الحديث على أن الرجل إذا وجب عليه نفقة أبيه وأمه ، ولا يملك إلا نفقة أحدهما قدمت الأم .([1])

الحديث الثالث :

عن جابر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ " غفر الله لرجل كان قبلكم : سهلا إذا باع ، سهلا إذا اشترى ، سهلا إذا اقتضى " . ([2])

الحديث الشريف فيه إخبار بالغفران المجزم به لمن توافرت فيه هذه الصفات ، حيث إنه جاء بصيغة الماضى المسند إلى الله عز وجل ، والمختص بمبهم نكرة ، مهد بتنكيرها للوصف بالجملة ، وذلك على سنة البيان الكريم من بعث همة السامع وتشويقه للخبر بمثل هذه المقدمات ، وقد جاء المهم المراد بيانه بعد أن اشرأبت له الأعناق وصفا يكشف سبب الغفران للرجل المكرم به ، وهو سهولة معاملاته ولين جانبه مع البائع والمشترى والمدين ، ويدل هذا بالأولى والأبلغ على بقية أنواع التعامل ، إذ أن ما ذكر فى الحديث هو المظهر الأقرب لانطباع النفس بهذا الخلق الكريم ، وقد تكرر الوصف بالسهولة فى الأمور التى تقع فيها المشاحة غالبا ، ليقرر بالتكرار أن السهولة كانت جبلة وطبعا ، فلم تكن فى البيع رغبة التخليص من سلعة كاسدة ، ولا فى الشراء

([1]) ينظر : نزهة المتقين شرح رياض الصالحين ج ١ ص ٢٥٧ .

([2]) ينظر تيسير الوصول إلى جامع الأصول ج ١ ص ٥٣ .

لانفراد السلعة وإلجاء الحاجة ، ولا فى الاقتضاء خوف الإهانـــة مـن مديـن شرير .

تؤكد هذا تلك المطابقة التى لم يقصد بها التحســين لعبــا بالألفــاظ ، إذ جاءت يقتضيها المقام ، وتقديم الوصف الواقع سببا وهو كلمة " سهلا " علـــى ظرفه الشرطى " إذا " فى كل مرة تأكيدا آخر ، لأنه يدل على الاهتمام بـــه ، وإذ هو مناط المغفرة ، فقد كان صحيحا لو قيل : إذا باع سهلا ، وإذا اشـــترى كان سهلا ، وإذا اقتضى كان سهلا . وبالمقارنة بين التعبيرين تظـــهر بلاغـة العبارة النبوية فى التقديم ، والإيجاز ، والحذف . ([1])

ينضم إلى هذا أن الفصل بين المكرر إيذان بأن ذكره إنما هو على سبيل المثال ، بحيث يكون ما ذكر نموذجا لما لم يذكر ، كما أن وقوع " إذا " مكـــان أداة شرط أخرى ، يفيد التقرير بصفة أوسع لطابع السهولة فى أخلاق الرجـــل فهى للظرفية ، وطردها مع هذه المعاملات الممثل بها لما سواها يساوى ما لـــو قيل : سهلا فى عموم أوقات المعاملة ، ومن جانب آخـــر هـــى أداة الوقـــوع والحصول ، فهذه الأمثلة المعبر عنها بالماضى كلما وقع منها شىء اقترن بـــه طبع الرجل من السماحة ولين الجانب . لذا استحق هذه البشارة العظيمـــة مـــن رسول الله ﷺ

الحديث الرابع :

عن عبد الله بن مغفل من صحيح الترمزى قولـــه ﷺ : " الله الله فـــى أصحابى لا تتخذوهم غرضا بعدى فمن أحبهم فبحبى أحبهم ، ومن أبغضـــهم ، فببغضى أبغضهم ومن آذاهم فقـــد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله ومن آذى الله يوشك أن يأخذه " .([2])

([1]) ينظر الحديث النبوى الشريف من الوجة البلاغية ص ٩٥ بتعرف .

([2]) ينظر الجامع الصغير ج ١ ص ٤٦ .

بالنظر فى هذا الحديث الشريف نلحظ أن صدره تكرر فيه لفظ الجلالـــة لتأكيد التحذير . أو لتأكيد الإغراء ، يساعد المعنى على تقدير أحدهما ، فيكـــون على معنى : احذروا غضب الله بسبب النيل منهم باتخاذهم غرضاً ، أو يكـــون على معنى : إلزموا تقوى الله بسبب إكرامهم ، وعلى كلا الوجـــهين فـــالتحذير المكرر أو الإغراء المكرر يدل على إعظام السبب وإكباره ، ويســـتلزم إكبـــار الصحابة وإكرامهم على وجه التأكيد .

ثم نجد فى باقى الحديث ألفاظاً أعيدت . وهى وإن كان تكرارها يستلزمه بناء المعنى على المكرر – تُقَرِرَ تكريم الصحابة ، وتزيد من إكبارهم : " مـــن أحبهم فبحبى أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم " والمقابلة بين الجملتيـــن تحمل معنى التأكيد فى تصوير اتحاد شأنهم بشأنه حباً وبغضاً ، وهذا الاتحـــاد ارتفاع إلى درجة أعلى فى تقرير السبب الذى من أجلـــه حـــذر أو أغـــرى ، وارتفاع بالتشنيع والتفظيع لاتخاذ الصحابة غرضاً يرمى ، وليس هـــذا آخـــر تأكيد ، بل يصعد الرسول ﷺ المعنى فينقل ذلك الاتحاد بين حبه وحب صحابته إلى درجة أشد مهابة وجلالاً ، لا يعبر عنها بصريح لفظ المحبة ، يفهم ذلك :

أولاً : من نزاهة أسلوبه من كثرة الترديد اللفظى على وتيرة واحدة .

وثانياً : أن ذكر اللازم الدال على هذا التصعيد يؤكد الربط بـــالمحذر منـــه أو المغرى بتفاديه فى الكلام السابق ، حتى تظل أواصر النسق متلاحمـــة . ذلك السابق هو : لا تتخذوهم غرضاً بعدى " إنه يســـاوى : لا تؤذوهـــم فى الدلالة العامة ويزد معنى القصد ؛ لأن اتخاذ الشئ غرضاً يدل علـــى العمد ، ويترتب عليه جملة " من أبغضهم " كالتعليل له ، تـــأكيداً لـــهذا القصد ، وهنا نجد النسق قد حصل على الموازنة المعنوية فـــى جـــانب البغض وجانب الحب ، فقلبٌ واحد لا يحمل حب الرسول ﷺ وبغـــض أصحابه ، وذلك لاتحاد البغض للصحابة بالبغض للرسول ﷺ.

والدرجة التى هى أشد مهابة وجلالاً فى تصعيد المعنى حتى يكون عند قمتها صدور الحكم بالجزاء ، هى إيصال الأذى إلى الله ؛ لأن الله ورسوله وأصحاب رسوله فى جهة واحدة ، من قَصَدَ إلى واحد منهم بحب قصدهم جميعاً فكان معهم ، فالله يقول : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . (١)

وخاصة المؤمنين صحابته رضوان الله تعالى عليهم . ولأن فى الجهة الأخرى المبغضين والمؤذين الذين حقت عليهم كلمة العذاب بذلك السبب من بغضهم .

فالملاحظ أن البيان الكريم يحدونا على درج مريح إلى قمة الحكم نشرف منها على الغرض منه ، وكم حمل من آيات التأكيد والتقرير ، إعلاء لشأن أصحابه ، واحترام حقوقهم من الإمامة والسبق ، وعرفاناً لحرمة التفافهم حوله عليه الصلاة والسلام ، تنعكس على قلوبهم انطباعاته قولاً وفعلاً وتأثيراً ، ثم تفيض علينا دينا وجهادا وبذلا .

الحديث الخامس :

عن عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : " عليكم بالصِّدْق ، فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً " . (٢)

---

(١) سورة الأنفال : الآية (٦٤) .

(٢) رواه مسلم جـ٤ كتاب البر والصلة والآداب ، باب قبح الكذب ، وحسن الصدق ، وفضله ، حديث رقم : ٢٦٠٧ .

هذا الحديث الشريف يرغب فى الصدق ويحذر من الكـــذب وقـد بـدأ بأسلوب إغراء " عليكم " لأن السامع إذا طرقت سمعه هذه الكلمة وهى بمعنى : إلزموا الصدق ، انتفض من شواغله ، وألقى انتباهه ، وبخاصة إذا عرف فـى مُغريه حرص الناصح الأمين . كما بدأ المحذر منه وهو الكذب بأسلوب التحذير " إياكم " ليجتنبه المخاطب ويبتعد عنه .

إنها وصية جامعة لخصال الخير كلها ، يتلقاها المؤمن بقلبه ، فيستوعبها عقله وفكره ، فلا يجد وصية مثلها ، يستريح لها ضميره ، إلا إذا كـانت فـى حَيِّزها وتحت سلطانها ؛ إذ ليس وراء الصدق من مطلب ، فهو الإيمـان فـى أسمى صوره ، وأرقى معانيه ، وقد سمى الله الإيمان صدقاً فـى كثـير مـن الآيات ، فقال جل شأنه : ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ . (١) أى : ينفع المؤمنين إيمانهم .

والصدق فى اللغة : القوة المادية والمعنوية ، يقال : سيف صـدق ، أى قوى صلب . ويقال : رجل صدق ، أى : شجاع مقدام ، يقـول الحـق ، ولا يخشى فى الله لومة لائم . وهو يعنى الثبات فى مواطن الجهاد والعِزّ والشرف .

ومن معانى الصدق أيضاً : الصلاح ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ (٢) . أى عملاً صالحاً ، قدموه لأنفسهم .

ولو تتبعنا لغة القرآن لوجدنا له من المعانى أكثر من هذا ، وكلها تنبـع من الإيمان وفيه تُصَبُّ ، فما من صفة محمودة إلا وهى شعبة منه .

وإذا كان الصدق هو الإيمان ، والإيمان هو الصدق ، فإن كـل شـعبة إيمانية يكون موردها ومردها منه وإليه .

---

(١) سورة المائدة : الآية (١١٩) .

(٢) سورة يونس : الآية (٢) .

فالأمانة صدق ، والوفاء صدق ، والصبر صدق ، والشكر صدق ، كل ذلك وما إلى ذلك من سائر الشعب والخصال الإيمانية مبناها عليه ومنتهاها إليه .

ومن هنا نعلم مقدار هذه الوصية ومكانتها فى نفوس المؤمنين . وهذه الوصية تتضمن من الوسائل التربوية ما يغرس فى النفوس الأَبِيَّة جميع الفضائل الإنسانية والمكارم الخلقية بلا استثناء .

فقوله عليه الصلاة والسلام " عليكم بالصدق " – كما أشرت – أسلوب حكيم يُسميه علماء اللغة : أسلوب إغراء (١) ، أفاد تزيين وتشويق ، وتهييج للعواطف وشحذ للعزائم ، واستنهاض للهمم ، وإلزام بالشئ المغرى به على وجه السرعة ، واغتنام ما فيه من خير وإصلاح ، وهو أقوى من أسلوب الأمر بصيغة (افعل) ، لما فيه من المعانى التى ذكرناها ، إذ الأمر بهذه الصيغة يبرهن على أنه رحيم بالمأمور ، حريص عليه ، راغب فى تحصيله لخير ما أمره به على أتم وجه وأحسنه .

كما أن فى هذا الأسلوب دعوة إلى التدبر فيما أمره بفعله ، وكأنه يحمل إليه سلفاً عاجل البشرى بما يترتب على امتثاله كما ينبغى أن يكون الامتثال .

والمعنى : تعرَّفوا على الصدق فى مواطنه ، واستشربوا حبه فى قلوبكم ، وألزموه فى جميع أقوالكم وأفعالكم وأحوالكم ، مع ربكم . عز وجل . ومع أنفسكم ومع الناس أجمعين ، ولا تفرطوا فى تحرِّيه أبداً ولو كانت السيوف على رؤوسكم ؛ فإن فى الصدق نجاتكم ، ولاتلجأوا إلى التعريض والتورية إلا عند الضرورة القصوى ، واتخذوه دينكم ، لأن

---

(١) ينظر : شرح ابن عقيل : جـ٣ ص (٣٠١) .

فيه عصمة أمركم وصلاح دينكم ودنياكم ، وهو برهان صحة إيمـــانكم وسلامة قلوبكم ، وحسن توكلكم على ربكم .([1])

وقد أكد النبى ﷺ هذا الأسلوب الحكيم بأكثر من مؤكد .

أولا : أسلوب الإغراء : عليكم بالصدق لما فيه من التشـــويق والحـــث علـــى التمسك به والترغيب فى جعله سلوكا طابعا للمرء .

ثانيا : استخدامه " إنَّ " الدالة على التوكيد فى قوله ﷺ " فإن الصدق يهدى إلى البر وإنَّ البر يهدى إلى الجنة " .

ثالثا : جعله ﷺ الصدق طريقا موصلا إلى البر الذى هو جمـــاع كـــل خـــير والموصل بدوره إلى الجنة التى هى أمل كل مؤمن . فهى جملة تقليديـــة لأمره ﷺ بالصدق ، وبيان لعاقبته .

رابعا : التكرار اللفظى لكلمة الصدق حيث ذكرت أكثر من مرة فـــى أســـلوب ترقىٍ يسمو بأصحابه إلى أرقى الجزاء وأسمـــاه فقال : عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدى إلى البر " وكان من الممكن قوله : فإنه يـــهدى إلـــى البر ، ثم قوله : " وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتـــب عند الله صديقا " وكان من الممكن أن يقول : وما يزال الرجل يصـــدق ويتحراه ... إلخ دون تكرار لكلمة الصدق إلا أن فـــى التكريـــر لـــهذه الكلمة من التقرير والتأكيد ما فيه ، أضف إلى ذلك ما يوحى به ســـماع هذه الكلمة من معانى ، وكأن الرسول ﷺ يرغب فـــى كـــثرة ذكرهـــا وترددها على الألسنة والإنصات عند سماعها .

وإذا كان تحرى الصدق يسمو بالمرء إلى مراتب الصديقين فإنها منزلـــة المقربين بعد النبيين وهم جميعا فى الجنة رفقاء قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِعْ اللَّـــهَ

([1]) ينظر وصايا الرسول وأثرها فى تقويم الفرد وإصلاح المجتمـــع للدكتـــور محمـــد بكـــر إسماعيل ج ٢ ص ٢٦٣ .

وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ .([1])

وكما رغب رسول الله ﷺ فى الصدق وشوق إليه حذر من الكذب ونفر منه فقال :

" وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار " .

وهذا التحذير بعد توكيد وتقرير للأمر بالصدق ؛ لأن الأمر بالشىء يستلزم النهى عن ضده – كما يقول أكثر علماء الأصول – لكنه لما كان الإيصاء بالصدق أمراً فى غاية الأهمية أتبعه بهذا التحذير ؛ مبالغة فى تحرى الصدق فقال : " وإياكم والكذب " أى : لا تقربوه ، ولا تحوموا حوله ،ولا تسلكوا من المسالك ما يحملكم على ارتكابه .

وهذا الأسلوب يُسمَّى عند أهل اللغة : أسلوب تحذير ([2]) . وهو ضد الإغراء .

وذلك لأن الكذب من أبغض الخصال إلى الله تبارك وتعالى ، فهو أم الكبائر ، وينبوع الرذائل ، وأساس الشر كله . وهو أفك يأفك صاحبه ، إذ أنه يصرفه عن البر ويبعده عن مواطنة ، حتى يكتب مع الفجار ، فيكون مصيره النار وبئس القرار. حببنا الله فى الصدق والصادقين ، وجنبنا الكذب والكاذبين .

([1]) سورة النساء : الآية (٦٩) .

([2]) ينظر : شرح ابن عقيل ج ٤ ص ٣٠٠ .

الطريق الثانى

التوكيد بأداة وضعتها اللغة أو العرف البلاغى

هناك أدوات فى اللغة العربية وضعت لإفادة معنى التأكيد لمضمون مـــا تدخل عليه من الجمل ، يختلف التعبير بوضعها وجودا وعدما ، وبمضاعفتـــها عند الوجود باختلاف المقام ، خفى سرها على بعض السابقين غير المشـــتغلين باللغة فاعترضوا على تلون الأساليب من جهتها ظنا غافلا أنـــها ســـواء فـــى الغاية .

يروى الأمام عبد القاهر ([1]) عن ابن الأمبارى أنه قال : ركب الكنـــدى المقفلسف إلى أبى العباس وقال له : إنى لأجد فى كلام العرب حشـــوا : فقـــال أبو العباس : فى أى موضع وجدت ذلك ؟ فقال أجد يقولون : عبد الله قـــائم ، ثم يقولون : إن عبد الله قائم ، ثم يقولون : إن عبد الله لقائم ، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد .

ثم يروى إجابة أبى العباس على الوجه الذى ورد فى أضرب الخبر مـــن أن الجملة الأولى خبر لخالى الذهن ، والثانية للمستشـــرف الطـــالب والثالثـــة للمنكر . والكلام قد يؤكد جوابا ولكنه أيضا قد يؤكد ابتداء لأنه مما يهتم به ، أو من شأنه أن يشك فيه ، أو ينكر لغرابته أو مفاجأته أو غيرها ، يقول عبد القاهر الجرجانى : ينبغى أن يعلم كما يكون " التأكيد " للإنكار قد كان من الســـامع ، فإنه يكون للإنكار يعلم أو يرى أنه يكون من السامعين ، وجملة الأمر أنـــك لا تقول : إنه لكذلك حتى تريد أن تضع كلامك وضع من يزع فيه عن الإنكار.([2])

([1]) هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى الإمام النحـــو المتكلـــم علـــى مذهـــب الأشعـــرى الفقية الشافعى واضع أسس البلاغية والمشيد لأركانها ، وفاتح مغلق أبوابـــها ، من أهم مؤلفاته : دلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغية توفى سنة (٤٧١) هـــ .

([2]) ينظر : دلائل الإعجاز ص ٢٥٢ .

وبعد فهذه نماذج من أحاديث رسول الله فى مقام الترغيب اشتملت على أداة أو أكثر من الأدوات الموضوعة لإفادة التوكيد .

الحديث الأول :

عن ابن دينار عن ابن عمر ﷺ أنه كان إذا خرج إلى مكة كان له حمار يتروح عليه إذا ملَّ ركوب الراحلة ، وعمامة يشد بها رأسه ، فبينا هو يوماً على ذلك الحمار ، إذا مَرَّ به أعرابى فقال : ألست فلان بن فلان ؟ قال: بلى . فأعطاه الحمار ، فقال : اركب هذا ، وأعطاه العمامة ، وقال : اشدد بها رأسك . فقال له بعض أصحابه : غفر الله لك . أعطيت هذا الإعرابى حماراً كنت تروح عليه ، وعمامةً كنت تشد بها رأسك : فقال : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : " إن من أبرِّ البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولى " . وإن أباه كان صديقا لعمر ﷺ . (١)

إن من بر الرجل بوالده أن يحب أصحابه بعد موته ، وأن يصلهم ، ويعطف عليهم ، وأن يمد لهم يد العون إن احتاجوا ، ، وأن يحيى ما كان أبوه يفعله معهم فى حياته . عرفانا بفضل والده عليه ، وصلة بعد موته ، وهذا ما فعله عبد الله بن عمر مع هذا الأعرابى إقتداء بحديث رسول ﷺ الذى سمعه منه ، وهكذا ضرب الداعية أروع الأمثال فى تطبيق ما يدعو إليه ، كى تؤثر دعوته ، وتجد أذنا صاغية . وما أحوجنا فى هذه الأيام لمثل ابن عمر ﷺ .

ولا يخفى أن بقاء صلة الابن بمن كان يودهم أبوه امتداد لتلك الصلة ، إذ الابن امتداد للأب ، وفى ذلك توثيق للصلات والترابط بين الناس ، وتماسك الوشائج فى المجتمع ، وترك هذه المكرمة نوع من الجحد والغدر بحقوق الأبوة ، والتزام الوفاء أمر واجب ينبغى أن يتأكد فى نفوس المؤمنين نحو

---

(١) الحديث رواه مسلم فى البر والصلة (باب صلة أصدقاء الأب والأم ونحوها (٢٥٥)

الأباء أحياء لأنفسهم ، وأمواتا لمن كانوا أصفياء لهم وأخـــلاء ، ولذلـــك جـــاء الحديث على ضرب من التأكيد بالأداة (إنَّ) .([1])

داخلة على المسند المقدم الذى يحمل معنى الاهتمام للتشويق بتقديمه أولا وبصيغة التفضيل للمسند إليه المؤخر ثانيا ، إذ ليس من مطلق البر هذه الصلة ، وإنما هى فى أعلى أدراجه – أبر شرفا ، وإضافة (الـــــبر) إلـــى (الـــبر) دون الأعمال زيادة أخرى فى هذا الشرف لأنه إضافة إلى الأخص ، فكأنه يقـــول : إنه أفضل الأفضل من الأعمال . وبذلك زاد التأكيد تأكيدا والتقرير تقريرا .

الحديث الثانى :

عن أبى موسى الأشعرى ﷺ قال : قال رســـول الله ﷺ : " إنَّ مثلـــى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قومه فقال : إنى رأيت الجيـــش بعينـــى وإنى أنا النذير العريان فالنجاء النجاة ، فأطاعه طائفة من قومـــــه فـــأدلجوا وانطلقوا على مهلهم فنجوا ، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحـــهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم فذلك مثل من أطاعنى واتبع ما جئت بـــــه مـــن الحق " .([2])

([1]) " إنَّ ، وأنَّ " تجيئان فى الكلام لمعانى كثيرة ، وفى مواقع عدة ، وهما من الحروف التـــى تدخل على المبتدأ أو الخبر ، فتنصب المبتدأ وترفع الخبر ومعناها التحقيق وتوكيد الخـــبر المفهوم من اسمهما . وفائدتهما : التأكيد لمضمون الجملة .. ومجىء كل منهما فى الكـــلام يضفى عليه لونا من اللطف والدقة ومن ثم فلا ريب أن " إنَّ ، وأنَّ " يتضح ورودهما فـــى الكلام لمعانى كثيرة ، وفى مواقع عدة ، وأن لكل معنى من المعانى غرضا بلاغيا ولكـــل موقع سر بيانى تشير إليه ولقد تحدث الإمام عبد القاهر عن "إن " ومواقعها ولطفها فـــى الكلام . ينظر : دلائل الإعجاز ٢٤٢ وشـــرح المفصـــل لابـــن يعيـــش ج ٨ ص ٦٣ – والأقصى القريب فى علم البيان للقاضى التنوخى ص ٧.

([2]) ينظر : تيسير الوصول ج ١ ص ٢٥ .

فى هذا الحديث الشريف يشبه الرسول علية الصلاة والسلام حاله مع البشرية فى البلاغ لدعوة الحق الذى جاء به ، فيظهرهما فى صورة رائعة عرفها العرب واهتموا بها اهتمامهم بالنفس الغالية وبنبض الحياة ، صورة العين الحريص على القوم يرى أعداءهم قد جمعوا لهم ، وأعدوا لاجتياحهم ، وزحفوا إلى ديارهم ، فيسرع يلهث من الجهد عرياناً منذراً بالويل ، ليسهل على الرائى أن يعرف الشرَّفى عريه ، كما يعرف الشرفى فى إنذاره الذى أكده تأكيداً لا يدع عذرا لأبله أحمق ، فإنهم يدركون بالفطرة ما تدركه بالدراسة من أن هذا التركيب : " إنى رأيت الجيش بعينى " يحمل من التقرير لفظا ينطق به هو (إنَّ) وهيئة تقصد من أجله هى تكرر الإسناد ، فالرؤية حاصلة من النذير ومخبر بها عنه ، ثم زيادة لا تلزم لغير هذا القصد ، هى تعلق الرؤية بأداتها (العين) مضافة إلى ضمير الرائى المتكلم ولتقطع كل تجوز أو احتمال . فإذا انتقلنا إلى الجملة الثانية : " وإنى أنا النذير العريان " رأينا عجبا من حرصه ، فالعبارة القولية مصاحبة للصور المرئية ، ولكنه يريد له الحب والرحمة أن يبلغ قوله أبعد ما يبلغ من قلوب السامعين .

إن التركيب المبدوء بحرف التأكيد (إنَّ) قد تكرر أيضا فيه إسناد النذير ، فأسند مرتين : إحداهما إلى ضمير الفصل إخبارا بالجملة الأسمية الدالة على الثبوت ،والثانية إلى اسم (إن) المسند إليه الأصل فى جملته ، وهذا الصنع من وجود ضمير الفصل بين الطرفين طريق للقصر ، أفاد تأكيد المعانى ودفع الشك ، فإذا أتبعنا النظر فى العبارة نجد أربعة أسماء تكونت العبارة منها بعد الحرف (إنَّ) وهى : ياء المتكلم ، وضمير الفصل والنذير والعريان وكلها معارف تشير إلى رؤية المخاطب للمتكلم رؤية العين ، وإلى سبق المعرفة له سبق المعهود .

فإذا تأملنا قليلا رأينا صيغة المبالغة (النذير) تنادى بنفسها على الجـــهد المبذول والنعمة المهداة ، ولقينا الوصف المعقب بما فى الجملة الســـابقة قولـــه (بعينى) .

ترى هل هذه الصورة العجيبة الدقيقة المتراكبة فى الممثل بـــــه تنطبـــق على صورة الممثل له ... ؟

إن النصوص القرآنية كقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِـــنْ أَنفُسِـــكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ . ([1])

وقوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَـــدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَـــى كُـــلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ . ([2])

هذه الآيات وغيرها ، وكذا تاريخ الدعوة يبين أن هذه الصورة المجملـــة للنذير العريان والصورة المجملة لإنذاره هى بعض ما يتصف به النبى عليـــــه الصلاة والسلام ، وتتصف به دعوته مـــن الصـــدق و الإخـــلاص والحـــرص والتأكيد وقيام الحجة .

أما الفريق المقابل للداعى فقد مثل له النبى عليه السلام بمثلين :

الأول : من هزهم النذير برؤيته منكشفا غير ملتبس مؤكـــدا غـــير مشـــكوك ، فأطاعه مدلجـــا ، يستره الليل بظلامه ، ويعينه على الســـــرى برفـــق جوه ، وعلى النجاة بندرة الرائين فيه ، وأولئـــك هـــم النـــاجون مـــن عدوهم . ذلك مثل المصدقين رسول الله ﷺ ظاهراً فيهم بالحق غـــــير ملتبس بالكاذبين معهود لهم بالصدق ، متكلما ومنذرا بآكد مـــــا ينـــذر بالخطر ويهدد بالنار (فذلك مثل من أطاعنى واتبع ما جئت به) .

([1]) سورة التوبة : الآية (١٢٨) .

([2]) سورة هود : الآية (١٢) .

الثانى : من نظروا إلى النذير النظر ، واستهانوا بصورته ، ولَهُوا عن دعوته ، واستخفوا بما أنذر به ، وخيَّل لهم الهلاك بُعْد عدوهم وصور لهم الردى قوة بأسهم ، فأصبحوا مكان ما أنذروا لم يتحركوا لنجاة ، ولم يعبأوا بفوز ؛ فداهمهم العدو وفتك بهم الحمق ، وأبادهم الغرور . (فذلك مثل من عصانى وكذب بما جئت به من الحق) .

إنها بحق البلاغة النبوية ، وإنه ما زال الرسول عليه الصلاة والسلام فينا نذيراً ، عريانا ، وما زال القرآن والسنة بيننا ينطلقان بكل تأكيد قوله : ﷺ " إنى رأيت بعينى " .

الحديث الثالث :

عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : " فوالذى نفسى بيده (١) لا يؤمن أحدكم حتى أكُون أحبَّ إليه من وَالِدِه وولدِهِ " . (٢)

---

(١) القسم من المؤكدات اللفظية القوية ، كان عليه الصلاة والسلام يؤكد به ما يستحق المقام تأكيده من المعانى ، وكانت ألفاظه فى البيان الكريم متفاوته القوة مع تفاوت المثيرات والدوافع ، فيقول عليه السلام مرة : والله " وثانية : " وأيم الله " . وأخرى : " لا والذى نفسى بيده " وتارة : " ومقلب القلوب " ومرة : " والذى نفس محمد بيده " أو " والذى نفس أبى القاسم بيده " وقد لا يذكر المقسم به ، مكتفيا بالإخبار عن القسم فيقول : " أقسم " ثم يذكر ما يريد القسم عليه وكان الصحابة يدركون الفرق بين هذه الصيغ فى درجة القوة حتى يقول أبو سعيدﷺ : كان رسول ﷺ إذا اجتهد فى اليمين قال : لا والذى نفس أبى القاسم بيده ، كما يدركون أكثر صيغة تكراراً منه عليه السلام فيقول ابن عمر ﷺ : أكثر ما كان يحلف رسول الله ﷺ : " لا ومقلب القلوب " " تيسير الوصول ٤ / ٥٠ ، ٣ /١١ ، ٤ / ٢٦٠ " . وقال الحافظ بن حجر عند الحديث عن قوله عليه الصلاة والسلام : " فوالله لا يمل الله حتى تملوا " فيه جواز الحلف من غير استحلاف وقد يستحب إذا كان فى تفخيم أمر من أمور الدين، أو حث عليه، أو تنفير من محذور . (فتح البارى ج١ ص ١٠٩).

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى باب حب الرسول ﷺ من الإيمان ج ١ ص ١٣١ .

فى هذا الحديث يرغب رسول الله ﷺ فى حبه ويؤكده حيث استهل حديثه بالقسم " فوالذى نفسى بيده " وهو مما يفيد التوكيد .

والمقصود " لا يؤمن أحدكم " أى : لا يؤمن إيمانا كاملا . وقدم الوالد للأكثرية لأن كل أحد له والد من غير عكس ، وفى رواية النسائى فى حديث أنس تقديم الولد على الوالد وذلك لمزيد الشفقة . وذكر رسول الله ﷺ الولد والوالد لأنهما أعز على العاقل من الأهل والمال ، بل يكونان أعز من نفسه .

قال ابن حجر نقلا عن الإمام القرطبى : كل من آمن بالنبى ﷺ إيمانا صحيحا لا يخلو عن وجدان شىء من تلك المحبة الراجحة غير أنهم متفاوتون ، فمنهم من أخذ مستغرقا فى الشهوات محجوبا فى الغفلات فى أكثر الأوقات ، لكن الكثير منهم إذا ذكر النبى ﷺ اشتاق إلى رؤيته بحيث يؤثرها على أهله وولده ووالده .. وقد شوهد من هذا الجنس من يؤثر زيارة قبره ورؤية مواضع آثاره على جميع ما ذكر لما وقع فى قلوبهم من محبته . (١)

ومن علامة الحب المذكور أن يعرض على المرء أن لو خُيِّر بين فقد غَرَض من أغراضه ، أو فقد رؤية النبى ﷺ ، أن لو كانت ممكنة ، فإن كان فقدها أن لو كانت ممكنة أشد عليه من فقد شىء من أغراضه فقد أتصف بالأحبية المذكور ومن لا فلا ، وليس ذلك محصوراً فى الوجود والفقد ، بل يأتى مثله فى نصرة سنته والذب عن شريعته وقمع مخالفيها ، ويدخل فيه باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

الحديث الرابع :

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل فى أرضى دويه مهلكة معه راحلته ، عليها طعامه وشرابه ، فوضع رأسه فنام نومة ، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته ،

---

(١) ينظر : فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ١ ص ١٣٣ .

فطلبها حتى إذا اشتد عليه الجوع والعطش قال : أرجع إلى مكانى الذى كنت فيه فأنام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه . فالله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده " . (١)

هذا الحديث الشريف يقرر أمر التوبة عند الله ، والدرجة التى لا يتصورها العبد المذنب ، والتى لو عرف قدرها لأمتلأ قلبه بالفرح ، واشتد أنسه بالله وإقباله عليه ، ورجاؤه فيه ، تيئيسا للشيطان ، وقهراً لوسوسته واستدراجه المؤمن بالذنب تلو الآخر حتى لا يجد لنفسه فرجة أمل فى القبول عند ربه ، إذ يملأ قلبه بالقنوط من رحمة الله .

ولا خَفِيٌّ – أيضا – ما فى الحديث من طرد لشبح اليأس عن التائبين ، فإن الشيطان يقول لمن تكرر منه الوقوع فى المعصية : لا توبة لك ، وقد عَصيت الله أكثر من مرة ، فمتع نفسك بهذه الشهوات المتاحة مادام باب التوبة قد أغلق دونك ، ونحو ذلك من المثبِّطات والمغريات .

والمؤمن لا يعرف الطريق إلى اليأس ، ولا يعرف اليأس الطريق إليه : ﴿ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الكَافِرُونَ ﴾ . (٢)

والبيان النبوى لا يصور فرحة التائب المقبول بالنجاة التى يحق لها أن تطول فرحته وتعمق ، وإنما يصور فرحة الله الذى لا تضره المعصية من العبد ولا تنفعه الطاعة ، فى تلك الصورة التمثيلية الرائعة والعجيبة ، ولهذه الغرابة كان الخبر محتاجا إلى تأكيده فكان منه أن يسبق بلام الابتداء تعجيلا لالتفات السامع ، وإسراعا باهتمامه .

---

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه رقم (٢٧٤٧) .
(٢) سورة يوسف : الآية (٨٧) .

وتأكيدا للترغيب فى التوبة إلى الله . كما استخدم (أفعـــل) التفضيـل مسنداً فى الجملة الابتدائية تصعيداً للمعنى ، وزيادة فى قســـر الســـامع علـــى الانتباه ، وفى ذكر المفضل عليه مع كل منها – وهو أمر يبلغ الغاية فى جنســه – إعلاء لشأن المفضل السابق وهو المسند إليه المرتكز على اللام ، فالخبر كله طرداً وعكسا فى جهة التقرير والتأكيد ، وهذا بعض سر البيان الكريم ، يـــرى أضعافه من يطيل الوقوف على دقائقه ، ويرهف الحس مع لطائفه .

الحديث الخامس :

عن فضالة بن عبيد قال : قال رسول الله ﷺ : " لله أشـــد أذنـــا إلـــى الرجل الحسن الصوت بالقرآن يجهر به من صاحب القينة إلى قينته " . (١)

استهل رسول الله ﷺ هذا الحديث بأداة من أدوات التقرير والتأكيد التـــى يسرع بها المتكلم لتأكيد كلامه وهى اللام المفتوحة الداخلة على المبتـــدأ ، (لله) والمسماة لام الابتداء . (٢)

والحديث الشريف يقرر على سبيل التمثيل شدة إقبال الله سبحانه علـــى قارئ القرآن بالصوت الحسن يجهر به ، لا إعجابا بصوته ، ولا تلاعبا بـــه ،

---

(١) ينظر الجامع : الصغير ج ١ ص ١٠١ .

(٢) هـــذه اللام لشدة توكيدها وتحقيق ما تدخل عليه يقدر بعض الناس قبلها قسما فيقول هـــى : لام القسم ، كأن تقدير قوله : لزيد قائم ، والله لزيد قائم ، فأضمر القسم ودلت عليه الـــلام وغير منكر أن يكون مثل هذا قسما ، لأن هذه اللام مفتوحة كما أن لام القسم مفتوحـــة ، ولأنها تدخل على الجمل كما تدخل لام القسم ، ولأنها مؤكدة محققة كتحقيق لام القســـم ، ولكنها ربما كانت لام قسم وربما كانت لام ابتداء واللفظ بهما ســـواء ، ولكـــن بـــالمعنى يستدل على القصد ، ألا ترى أن من قال : لزيد قائم ، محققا لخبره لم يقل له : حنثـــت إن كان زيد غير قائم ولكن إذا وقع بعدها المستقبل ومعه النون الثقيلة أو الخفيفـــة فـــهى لام القسم ذكر القسم قبلها أو لم يذكر كقولك . لأخرجنَّ ولتنطلقن يا زيـــد . (ينظـــر كتـــاب اللامات للزجاجى (ص . ٧) . ومعنى اللبيب ص ٣٠٢ .

ولكن تذكيراً وتعبدا ، فهذا المعنى لازم الجملة الابتدائية المؤكدة : إذ لا يكـــون هذا الأثر البالغ المحمود إلا لمن خلصت نيته ، فقرأ معتبراً ، وتعدت بركته إلى سواه بالجهر الهادف إلى الخير .

ولا شك أن تأكيد هذا الخبر باللام السابقة يحمل المؤمنين على تحســـين أصواتهم بالقرآن ، ويرغبهم فى إدامة تلاوتهم له ، ليكونوا فى خطوة ما بعدهـا حظوة من شدة إقبال ربهم بالرضا والثواب .

الحديث السادس :

عن زيد بن خالد ﷺ قال : قال رســـول الله ﷺ : " ألا أخـــبركم بخـــير الشهداء ؟ الذى يأتى بشهادة قبل أن يسألها " . (١)

ألا فى هذا الحديث للعرض (٢) ، وهو استحضار نفس المخاطب وعقلـه بهذه الجملة التى تحمل سؤالا مشوقا إلى ما يكون من جواب ، فالشاهد الـذى لا يقيم الشهادة حتى يسأل قد يغمط الحق وهو لا يأبه خوفا على نفســـه ، فينقلـــب آثما قلبه ، فليس خير الشهداء .

وأما الذى يتطوع فيقيم الشهادة لله – متى عرف أن العدل فى إقامتـــها – لا ينتظر أن يطلب لأدائها فذلك خير الشهداء ، لأنه آثر رضا الله وإن ســـــخط الناس .

ولا شك أن السياق على هذا الترتيب : من عرض السؤال مفتتحا بـــأداة العرض ، ثم تعقيبه الجواب يقرر مضمون الجواب ،ويسوقه إلى أعماق النفس ،

---

(١) ينظر : تيسير الوصول إلى أحاديث الرسول ج ٤ ص ٥١ .

(٢) (ألا) تأتى للعرض والتحضيض ، ومعناها : طلب الشىء والتحضيـــض طلـــب بحـــث والعرض طلب بلين ، وتختص بالجملة الفعلية لا غير ... فهى لتوكيد مضمون الجملـــة (مغنى اللبيب ٩٧ و الإتقان ١٩٨/١) ، ورصف المبانى ٧٩ .

لوقوعه موقع المنتظر المطموح إلى علمه ، فإذا انضم إلى ذلك أن المخبر بـــه المعروض قد وقع اسم تفضيل مضافا إلى جنسه ازداد الشوق إليـــه ، والرغبـــة فيه ، وعبارة الجواب التى باغتت السامعين عجلت بالإيجاز الذى يؤثره البيـــان النبوى دائما ، فحذف صدرها المسند إليه والمحكوم عليه بمـــا ســـبق إســـراعا بتقريره بالموصل الدال بصلته على سبب التفضيل على الجنس ، ولا يخفى مـــا فى إضافة الشهادة إلى الضمير من الدلالة على اختصاصها بـــه علـــى وجـــه معين ، قد يوافق أو يخالف شهادة غيره ، فتكون متعينة لإقامة العدل ، وأنـــها ملكه هو ، ليس لسلطان أن يحولها عن وجهها متجانفا لإثم ، وبناء فعل السؤال لمجهول مع إيجازه فيه التعميم المناسب للتفضيل ، سواء كان السائل الحاكـــم ، أو السائل المجنى عليه ، أو هو المتهم . ([1])

الحديث السابع :

عن أبى هريرة ﷺ قال :قال رسول الله ﷺ : " لا تشد الرحال إلا إلـــى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى هذا والمسجد الأقصى " .([2])

يؤكد الرسول ﷺ حرمة المساجد وتعظيم شـــأنها ، حتـــى تظـــل علـــى المؤمنين عزيزة مرموقة ، تهفو إليها القلوب ، وترغب فـــى الرحلـــة إليـــها ، تجديدا للمعانى التى صحبتها . إنها الأعلام التى أنبجست منها الأنوار تكشـــف الظلمات ، وما تزال تؤدى ما لايؤدى العلماء من جذب القلوب إلى الله .

فقصر الواجب من شدة الرحال اهتماما على هذه المساجد دون غيرهـــا من المزارات ودور العبادة ، إيحاء بما لها من فضل يتأكد على المؤمنيـــن أن يعرفوه ، لما شرفها الله به من إمامة الأنبياء ونشر دعوتهم .

([1]) ينظر : الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية ص ١٢٢ .

([2]) الحديث رواه مسلم فى كتاب الذكر (باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكـر) (٢٦٩٩) .

وقد استعمل الرسول ﷺ من طرق القصر ([1]) طريق النفـــى والاســـتثناء الذى يعد من أقوى الطرق تأكيدا فى الترغيب للسفر إليها .

الحديث الثامن :

عن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ قال : " ما اجتمع قوم فى بيـــت مـــن بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده " .

هذا الحديث الشريف يؤكد فيه رسول الله على عمارة المساجد، ويرغـــب فيها بالذكر الحكيم ، ومدارسه أحكامه قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنْ الْمُهْتَدِينَ ﴾ ، ([2]) والذين يتلون آيات الله يرجون تجارة لن تبور .

فالحريص على أمته والرؤف الرحيم بها . عليه الصلاة والسلام يبين لها هذه المفازة لتنجو وتسعد بياناً مؤكدا بحصر جلوس القـــوم هكـــذا فـــى تلكـــم الأضرب من الجزاء الكريم والتجلى الإلهى ، حتى يروا ما يبذلونه من الســـبب هيناً يملكونه ، وما يوهب من الثواب عظيما يرجونه ، فتهش قلوبهم للمســـاجد يتنافسون فيها ، وتستيقظ قلوبهم فترى – وهى تتلو كتاب الله وتدرســـه – مـــا أخبر به الصادق المصدوق رأى عينها ، والحديث يشير بلفظ القوم إلى فضـــل

([1]) تعد طرق القصر ضروبا من التأكيد للمعانى على وجه أخص ، سواء كان النفى لما عـــدا المقصور عليه عاما أو خاصا ، لأن القصر معناه تخصيص أحد الطرفين بالأخر ، وكون أحدهما مختصا بصاحبة يجعله ألزم وألصق من كونه متصفا بملابسته اتصافـــا مطلقـــا ، ولذلك يجىء القصر على منكر الحكم باعتقاد عكسه ، وعلى معتقد الشركة اعتقادا غـــير صحيح ، بإفراد مستحق الحكم عند المتكلم ، وعلى المضطرب المتشكك فى مستحق الحكم بتعيينه له ، كما جاء للمبالغة فى الخاص يجعله كل جنسه لكماله فى الحكم ، فينزل غـــيره بالنسبة إلى وجوده منزلة العدم . وينظر شروح التلخيص ج ٢ ص (١٦٦) وما بعدها

([2]) سورة التوبة . (١٨) .

الجماعة ، يذكر بعضهم بعضا ما نسى ،ويكشف ما خفى ، كما يفيد استحباب الاجتماع فى بيوت الله وتلاوة القرآن ومدارسته ، لأن ذلك سبب فى نزول الطمأنينة وهبوط الرحمة ، وحضور الملائكة . ورضا الله عن المجتمعين ، وذكرهم فى السماء بعملهم المبارك . (١)

---

(١) ينظر : نزهة المتقين ج ٢ ص ٢٠ .

المبحث الثانى

ضروب التوكيد اللفظية وأسرارها البلاغية فى أحاديث الترهيب

عرفنا فى المبحث الأول من هذا الفصل أظهر أنواع التوكيد ، وهو إما أن يكون بتكرير الجملة الأولى أو شىء منها ، وإما أن يكون بأداة وضعتها اللغة أو العرف البلاغى لإفادته . وقد سقت مجموعة من أحاديث الترغيب التى اشتملت على هذا اللون من التوكيد .

وفى هذا المبحث سأقوم بعرض مجموعة من أحاديث الترهيب التى اشتملت على هذا اللون من التوكيد . كاشفا اللثام عن الأثر البلاغى ،والقيمة الفنية المستفادة من هذا التوكيد .

الطريق الأول

إعادة الجملة الأولى أو شىء منها ([1])

الحديث الأول :

عن أبى بكر ﷺ قال : " أثنى رجل على رجل عند النبى ﷺ فقال : ويحك قطعت عنق صاحبك قال له ثلاثا ثم قال من كان مادحا أخاه لا محالة فليقل : أحسب فلانا والله حسيبه ولا يزكى على الله أحدا ، أحسب فلانا كذا وكذا إن كان يعلم ذلك منه " . ([2])

المتأمل فى هذا الحديث يجد أنه صدر بجملتين متتابعتين تكررتا ثلاثا ، لأنه معلول وعلته (ويحك قطعت عنق صاحبك) أما ويحك " ففى حكم الجملة لأنه هنا مصدر منصوب على المفعول المطلق بفعل محذوف يقدر من مادة أخرى وإضافته إلى الكاف لتعيين المخاطب ، والمقصود به الدعاء ، وهذا رأى

([1]) سبق الحديث عن هذا الطريق ص ٤١ من البحث .

([2]) الحديث ورد فى كتاب تيسير الوصول ج ٤ ص ١٦٧ .

(سيبوية) ويرى (الفراء) أنها كناية عن (ويلك) وهى كلمـــة تقـــال ضـــد الشتم والتوبيخ معروفة وكثرت حتى صارت للتعجب يقولها أحدهم لمن يحـب ، ولمن يبغض . ([1])

وقد يقال : إنها للترحم كما فى القاموس المحيط : " ويح لزيد وويحاً لـــه كلمة رحمة " . ([2])

ونخلص من هذا إلى أنها إما دعائية على المخاطب ، وإما تعجبيه مـــن صنع هذا الرجل وإما للإشفاق عليه ،وهذه الأمور يستلزمها ما ارتكبه من أمـــر خطير يسمعها فى مستهل رد النبى ﷺ فيستشرف مبهوتا لأمر لـــم يحتســبه ، ويبين ﷺ علة الدعاء أو الإشفاق أو التعجب الذى تحتمله كلمة (ويحك) مصورا ثناء مخاطبة ومدحه صاحبه بصورة الجريمة الكبرى : قطع عنق الممـــدوح ، وحسبك أن يكون قطع العنق من صاحب لصاحبه ، إنه غايـــة فـــى الشـــناعة والترهيب من هذا العمل .

هل ثناء الإنسان على الآخر يشبه قطعه عنقه ؟ . هل هو أمـــر خطـــير يستحق الدعاء ، أو الإشفاق ، المكرر ثلاث مرات ؟. إن الرسول ﷺ المعلـــم المثالى يربى المؤمنين على الحيطة والحذر والأناة وضبـــط اللســـان ، صونـــا للعقيدة وبراءة من الكذب فى صورة ما ؛ ومن الناس منافقون تســـكن الذئـــاب الخاتلة لين أبشارهم ، وخافض أطرافهم ، والثناء يعد شـــهادة ، فـــإذا كـــانت لأحدهم ربما غرت طائفة من الخلق تضيع فى مخالبهم هذه الشهادة إذا حَلَـــوْا بهم ، أما تكون هذه الشهادة مضلة ؟ . أما توقع صاحبها من بعد فـــى الأســـف والاعتذار الشديد ؟ .

والمؤمن كيس فطن حذر ، أما كان يحسن أن يتحول عن صيغة الثنـــاء بالجزم إلى لفظ يبرئه من الظنى ، ويجافيه عن التهمة ، ويبعده عـــن الأســـف

([1]) ينظر : شرح المفصل لابن يعيش ج ١ ص ١٢١ .
([2]) ينظر : القاموس المحيط ج١ ص ٢٥٦ .

والاعتذار ؟ هنا يجيء البيان الكريم كالقانون الناشئ من واقع الحادث ليعصم من جديد يحدث ويبين كيف يثنى الإنسان على صاحبه بما لا يجعله مظنة للكذب أو الخداع ، فيأمرهم بالاحتراس حتى لا يزكوا أحدا على الله ، يعلم الله سره ونجواه — إلا أن يقولوا نحسب فلانا صالحا إذا ثبت فى علمهم صلاحه ،وهذا من الرسول ﷺ إشارة واضحة إلى أن علمنا بواطن الناس مهما صاحبناهم لا يزيد عن الظن فى إثبات الصفات أو نفيها ، لأنه علم من الظاهر الذى تمكن المصانعة فيه والصبر على التظاهر به .

ولمحة لطيفة أخرى فى الحديث الشريف ، هى من جنب التأكيد لترك الثناء الآنف الذكر يفيدها قوله الكريم : " من كان مادحا أخاه لا محالة " أليست تساوى : من ألجأته الضرورة إلى مدح أخيه ؟ . ([1])

إنه ﷺ يؤكد ويقرر طلب نزاهة المؤمن عن التورط فى الشهادة إلا بحقها ، وعند الحاجة إليها ، إذ أن فريقا آخر من الناس لا يجرهم المدح إلى الغرور فيقتلون ، أو يخدع بهم جماعة من الناس فيبقون ، إنهم فريق مؤمن يخجل من الثناء عليه فيربو به نور الإيمان فى وجوههم من أثر الحياء فى قلوبهم ، أولئك لا مفر من مدحهم ، ليزيدوا من نشاطهم فى الطاعة والتحصيل فينتفع الدين والوطن بمثلهم ، ولكن على هذا النمط الذى رسمه رسول الله ﷺ أحسب فلانا ، والله حسيبه .

الحديث الثانى :

عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : " رغم أنفه ، رغم أنفه ، رغم أنفه . قيل من يا رسول الله ؟ قال : من أدرك والديه عند الكبر أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة " . ([2])

([1]) ينظر : الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية ص ٨٤ بتصرف فى العبارة .

([2]) الحديث وارد فى كتاب تيسير الوصول إلى جامع الأصول ج ١ ص ٤٥ .

استهل رسول الله ﷺ هذا الحديث بجملة دعائية عبر عنها بالفعل الماضى " رغم أنفه " تأكيدا لتحقيق الوقوع ، لو لم يكررها الرسول لكفى بصاحبها خيبة وخسراناً ، إلا أن الرسول ﷺ كررها ثلاث مرات إمعانا فى الترهيب حتى خفق قلب السامع ، واستولى عليه الرعب والفزع إشفاقا على نفسه ، أن يكون ذلك الراغم الأنف .

وقد أبهم الحديث بيانه فأضمره غائبا قبل الذكر حتى يستثير النفس بالانتباه ، والنفس طلعه بطبعها إلى من يصدر عليه الحكم ، وقد فزع الصحابى لأنه لا يطيق الانتظار ، فبادر بالسؤال " مَنْ يا رسول الله ؟ " . فأجابه عليه السلام : إن هذا الشقى المحروم هو عاق الوالدين أو أحدهما عند الكبر ، وهو يزيد ذلك توكيدا من قبل اللزوم ، فينسب إدخاله الجنة أو عدم إدخاله إلى الوالدين كأنهما يملكانه تماما .

وفى هذا الحديث من النصح والحض على بر الوالدين ، وبيان حقهما ، والترهيب من سوء عاقبة عقوقهما .

الحديث الثالث :

عن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : " ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ،ولهم عذاب أليم قالها ثلاثا ، قلت : خابوا وخسروا يا رسول الله من هم ؟ قال : المسبل ، والمنان ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب " .([1])

بُدِئ الحديث بكلمة " ثلاثةٌ " وهى نكرة ،ولا يعلم معنى تنكيرها لما هى عليه من إبهام . ثم كشف ﷺ عن معنى التنكير والغرض منه بهذا الوصف " لا يكلمهم الله " ، وهو التحقير إلى درجة الحرمان من أسمى الخير .

([1]) الحديث رواه مسلم فى كتاب الإيمان (باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية وتنفيق السلعة بالحلف) (١٠٦) .

والناظر فى الحديث يرى أربع جمل موصولة تتصف بمجموعها النكرة ، ثلاثٌ منها سلبٌ تجرد النكرة من أجر الثواب وصالح العمـــل ، وأوفـــى فـــى الثواب (كلام الله – نظره سبحانه يوم القيامة – تزكية الله) وهى جمل فعليـــه مضارعية تدل على أمرين :

أولا : على التجدد أى الحصول بعد العدم ، وقد انتفى عنهم أزلا فانتفى أبـــداً لا لذواتهم ولكن لصفاتهم الموجة للحرمان .

ثانيا : تدل على مثوبة المؤمن وكرامته التى تتجدد له هذه الجزاءات ثبوتـــا ، لأنه برئ من تلك الصفات .

ثم تقرر الجملة الاسمية الأخيرة ، وهى للدوام والثبوت فـــى ذاتـــها – بتقدم المسند وهو الجار والمجرور " ولهم " على المسند إليـــه "عـــذاب " ، ثـــم بوصف المسند إليه وصفا على المبالغة " أليم " وذلك فى قوله ﷺ " ولهم عـذاب أليم " فتقطع كل وهم يستبقى لهم شيئا من الأمل . أيكون من سلب تلك المكارم جديراً بغير ذلك العذاب ؟

الجمل الموصلة الثلاث يلزم بعضها بعضا من جهة المعنى ، فكل مفهوم يؤكد ما سبقه ، فالمحروم من رحمة كلام الله ومتعة إقباله عليه محـــروم – لا شك – من نظره إليه ، ومن لا يكلمه الله ، ولا ينظر إليه لا يكون محل تزكيـــة ثم من كان كذلك كله ليس له إلا العذاب الأليم .

لكن هذه الجمل وصلت بالواو ، أما أولا : فللتناسب وعدم المانع ، وأمـــا ثانيا : فلأن العطف كما يقولون يقتضى المغايرة والمغايرة حاصلة بالتنويع لأنها ألـــوان من العذاب بعضها فى بعض ، وكونها كذلك أشد غير بعض الإيجـــاع وأدل على الجريمة ، فالكلام غير النظر ، والتزكية أعم من أن تكون كلامـــا : هذا كله كرره البيان النبوى ثلاث مرات تكريراً لفظياً يوجبـــه التقرير ، للإنذار

فى مقام الترهيب ليقتلع جذور الشر الموجبةَ للحرمان ، وليقـــى الأصحـــاء أن يختلس الشيطان قلوبهم فيمرضوا فيموتوا .

إن الثلاثة ما يزال أمرهم مبهما ، وإن الوعيد والسخط ليعظم .. لذا لـــم يصبر أبو ذر ﷺ تقاة من شرهم واطمئناناً على سلامته ، ولذا بادر فأخبر عنهم الخيبة والخسران تصديقا للصادق المصدوق ثم سأل : من هم ؟ فـــأتى البيـــان بالصفات المهلكة .

الصفة الأولى : المسبل : وصف يكنى عن المتكبر المتعالي الـــذى ينـــازع الله رداء عظمته ، وينسى أنه إن يسلبه الذباب شيئاً لا يســـتنفذه ، وأنه يخلو كل يوم مرات لينجو من شر ما فيه .

الصفة الثانية : المنان : الذى يعطى ما استخلفه الله فيه من الرزق فينسى أنـــه وماله ملك الله ، فيفسد ما أعطى ، ويبطله بالمن والأذى كفـــرا بأنعم الله ، وإذلالا للكرماء من خلقه ، أو يقدم – بمعونـــة الله طاعة له – خدمة لخلقة ، فيمحقها فيبدلها بالحديث عنها تيـــهاً وإعجابا . ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُـــوا صَدَقَـــاتِكُمْ بِـــالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾ .(١)

الصفة الثالثة : المروج سلعته بيمين فاجر كذوب ، يقتطع بها عرضـــاً فانيـــا ويخسر دينه ، لأنه غاش أولا ويروجها باسم الله ثانيا .

وهذه الصفات الثلاثة يسيرة فى الظاهر عند كثير من الناس لا يظنـــون بها ذلك الخطر الخطير ، وإن جانبا كبيراً من هذه الخطورة قد ســـاعد علـــى تصويره التقرير والتأكيد المستفاد من التكرير .

---

(١) سورة البقرة . الآية (٢٦٤) .

الطريق الثانى

التوكيد بأداة وضعتها اللغة أو العرف البلاغى ([1])

الحديث الأول

عن عائشة رضى الله عنها قالت : " استأذن رجل على رسول الله ﷺ فقال : بئس أخو العشيرة ، فلما دخل انبسط إليه وألان له القول ، فلما خرج قلت : يا رسول الله حين سمعت الرجل قلت كذا وكذا ، ثم تطلقت فى وجهه وانبسطت إليه ؟ يا عائشة متى عاهدتنى فاحشا : إن من شر الناس عند الله تعالى منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء فحشه " . ([2])

يحتوى هذا الحديث على حوار دار بين رسول الله ﷺ والسيدة عائشة رضي الله عنها حول موقف رسول الله ﷺ من رجل استأذن فى الدخول على رسول الله فقال ﷺ مخبرا بما هو عليه الرجل من سوء الخلق " بئس أخو العشيرة " وهو أسلوب يفيد الذم . فلما دخل الرجل أنبسط إليه الرسول ﷺ ورحب به وألان له الكلام .

هذا الموقف جعل السيدة عائشة تتساءل متعجبة من موقف رسول الله ﷺ تجاه هذا الرجل ، كيف يقول فيه كذا وكذا ثم ينبسط له ويستقبله ، ولم يرده ويظهر بغضه له وعدم رضاه عنه ، وكأنها رضى الله عنها استبعدت أن يحدث هذا الموقف من رسول الله ﷺ ، فبادرها بهذا السؤال : يا عائشة متى عاهدتنى فاحشا ؟ وهو استحالة أن يكون منه ذلك ﷺ ، ثم أخبرها عن سبب موقفه هذا من ذاك الرجل مستهلا قوله بأداة التوكيد " إنَّ " ، وتقديم الحكم – إن من شر الناس عند الله تعالى منزلة يوم القيام – للاهتمام البالغ بالتحذير والترهيب منه .

([1]) سبق الحديث عن هذا الطريق ص (٥٦) من البحث .

([2]) ينظر : تيسير الوصول ج ٤ ص ٢٧٩ .

وقد صحب ذلك أنواع من التخصيص تصعد الشعور بشديد العقاب تأكيدا لشناعة الإثم ، فالتقييد بالظرف المكانى " عند الله " الـــذى يملـــك المجـــازاة ، وجملة التنزيه والإجلال (تعالى) وتوسطها بين صيغة التفضيل وتمييزها تبكيرٌ بتربية المهابة ، ثم التقييد بالظرف الزمانى (يوم القيامة) الذى لا يقـــدر مـــن يدعى ملكا فى الدنيا أن يدعى فيه شيئاً ، وقد اختص بقوله تعالى : ﴿ لِمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾ (١) . ليقطع أوهام الواهمين ويسقط طمع المتجبرين .

كل هذه الخصائص حاطت الحكم فى المكان والزمان جوانبٌ من التـــأكيد فضلا عن الأداة المنذرة به ، تضع من يتركه الناس خائفين لسانه فـــى أشـــنع موقف من الرذيلة ، إذ ينتظر أفظع منزلة من العقاب يوم لا تملك نفس لنفـــس شيئا والأمر يومئذ لله .

الحديث الثانى :

عن عائشة رضى الله عنها (أن قريشاً أهمهم شأن المخزومية التـــى سرقت ، فقالوا : من يكلم فيها رسول الله ﷺ ؟ فقالوا : ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد رضى الله عنهما : حِـــبُّ رســـول الله ﷺ فكلمـــه أســـامة رضي الله عنه فقال : أتشفّع فى حد من حدود الله تعالى ؟ ثم قام فاختطب ، ثم قـــال : إنمـــا أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا ســـرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمـــد ســـرقت لقطعتُ يدها " .(٢)

يؤكد الرسول ﷺ فى هذا الحديث نزاهة الإسلام وعدالة نبيـــه التـــى لا يستقيم أمر المجتمع إلا بها ، فلا شفاعة فى حدود الله لجاه أو مـــال أو شـــرف

---

(١) سورة غافر الآية (١٦) .

(٢) ينظر : تيسير الوصول إلى جامع الأصول ج ٢ ص ١٣ .

كذلك ، فالشرف للسير على الجادة ، ولا شرف ولا كرامة للمنحـــرف الضـــار دينه ، والمعتدى على الناس ، ولا نظر إلى صلة دنيويـــــة – مـــهما تـــأصلت وعمقت – يطغى على إقامة ما أوجب الله أن يقـــام لســـلامة دينـــه ولكرامـــة المؤمنين وصيانة حقهم ، فصلة النبوة بين سيدنا محمد ﷺ وبين فاطمة ابنتـــه لا تحرك رأفة النبى فيرحمها من قطع اليد حين يوجب الإسلام قطعها ، ولا أكـــوم من سيدنا محمد ﷺ حاكما ، ولا من فاطمة بنت محمد محكوما عليه ، فســواهما أولى بالحذر من المخالفة .

ومن المعلوم فى الحديث بناء الأمر علـــــى أداة الشـــرط الدالـــة علـــى الافتراض ، وقد يلمس قارئ الحديث أن إنفعال الرسول ﷺ قد بلغ ذروته حين نطقه الكريم بهذه العبارة ، وخاصة أنه استهلها بالقسم " وأيم الله " وهو الصادق الأمين ،وذلك لأن المحلوف عليه من الأمور المهمة ذات البال التى ينبغـــــى أن يستشرف لها السامع ، ويتلقاها تلقى الاهتمام لما تعيه من مدلول دينى خطير فى حياة الفرد والمجتمع .

وهذه العبارة " وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها " قد بلغت حدا جازما فاصلا يخرس كل شفيع أحمق إلى يـــــوم القيامـــة ، وإتبـــاع الاسم العلم " فاطمة " ، بالبيان وهو قوله : " بنت محمد " – له قيمة فى تقريـــر مضمون الكلام ، فهو لا يدع للشك مجالا فى تحديد أعلى صلة بيـــــن الحـــاكم والمحكوم عليه ، ففيه لفظ النبوة ثم هى مضافة على الالتفات إلى الاسم الظاهر (محمد) دون ضمير المتكلم لأنه أشد تحديداً لمدلولـــــه فـــى مقـــام الـــترهيب والمهابة ، على العكس من نسبة فعل القطع إلى الضمير ، لأن ذلك أبلـــغ فـــى الدلالة على مباشرة الفعل ، وأسرع فى حسم الموقف .

حديث الثالث

عن المستورد بن شداد ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ " والله ما الدنيا فى الآخـــرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه فى اليم فلينظر بم يرجع " . (١)

فى هذا الحديث يكشف رسول الله عن منزلة الدنيا من الآخرة ، والنـــاس ما رأوا غير دنياهم ، وهم يرونها واسعة واسعة ، مضت فيها القرون دراكـــا ، وتتابعت الأمم لحافا ، ولم يروا الآخرة لأنها غيب غائب ، فيقســـم ﷺ مؤكـــدا خبره ليلفتهم إليه ، حتى لا تفتنهم سعة حاضرهم ، وزخرفة ما حصلـــوا منـــها غرورا ، وما فاتهم منها ندما ، إذ أن ما يملك منها الناس جميعا من البدء إلـــى النهاية يعادل لتفاهته وقلته ما يصيب من البلل إصبعا غمست فى اليم ، بينما اليَمُّ كله تشبهه الآخرة لبقائها واتساع أرجائها وعمق طبقاتها ، فى جانبيها من ثواب الأبرار ، وعقاب الفجار .

فمن يقرأ هذا الحديث ، أو يسمعه يزهد فى الدنيا ويقل تعلقه بها مـــهما أوتى منها ويرغب فى الآخرة ويقبل عليها ، ويحرص على الفوز بنعيمها .

الحديث الرابع :

عن أبى هريرة ﷺ قال : قال " رسول الله ﷺ : " ليأتين علـــى النـــاس زمان لا يدرى القاتل فى أى شىء قَتَل ، والمقتول فى أى شىء قُتِل . قيـــل : وكيف ذلك ؟ قال : الهرج ، القاتل والمقتول فى النار " . (٢)

يخبر الرسول ﷺ فى هذا الحديث عن أمور مستقبلة يراها النبـــى ﷺ ، ولا يراها قومه . محذرا منها كل من يدركها ، ومن شأن مثل هذه الأخبـــار أن

---

(١) الحديث رواه مسلم فى كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (باب فناء الدنيا وبيـــان الحشـــر يوم القيامة) (٢٨٥٨) .

(٢) ينظر : تيسير الوصول إلى جامع الأصول ج ٤ ص ١٩ .

يعززها المخبر بما يشاء من المؤكدات ، ليدفع الشك عن نفس يسهل عليـــها أن تشك لضعفها ، وليكون ذلك الخبر المؤكد دليل ثقة المتكلم بمـــا يخـــبره بـــه ، ودليل صدق رسالته عليه السلام حين يقع فى الأزمان المقبلة وفق ما أخـــبر ، فيصير إذ ذاك امتداداً للمعجزة ، فضلا على ما يلزم الخبر من حـــذر المؤمـــن مما ينذر الرسول به أو يحذر منه . تلك الأمور هى انتشار الفتن بيـــن النـــاس حتّى يشهر بعضهم السلاح على بعض فيقتل أحدهم دون ذنـــب يعلمـــه ، وإذا سُئِل القاتل لم قتل ؟ لا يعلم سببا لما فعل وذلك من شدة الاضطراب ، وفســـاد الأمر ، وتفشى الفوضى وسقوط الحكم .

والرسول ﷺ إذ يخبر صحبه بهذا – وهو نورهم وسراجهم – يُحَمِّلُ هذا الخبر قافلة الزمن ، ترحل به عبر العصور ، ليتخذ كل عصر به جُنَّته وحـــذره فلا يحيف ولا ينزلف إلى النهاية البائرة ،وما أقرب حالنا من هذه البوادر التـــى طلَّتْ برأسها . نسأل الله السلامة منها والعصمة من شرها ومخاطرها . ([1])

الحديث الخامس :

عن الزبير ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : " دب إليكم داء الأمم قبلكـــم : الحسد والبغضاء ، وهى الحالقة : أما إنى لا أقول تحلق الشعر ولكـــن تحلـــق الدين " . ([2])

هذا الحديث الشريف يتحدث عن أمرين خطيرين طالما أهلكا أمما قبلنا ، ولتأكد الضرر البالغ منهما إلى صميم الحياة الاجتماعية والروحية فـــى عمـــق العقيدة – نبه عليه الصلاة والسلام إلى شرهما فأعطاهما ما لموس الحلاق مـــن حدة ومضاء على وجه التشبيه المؤكد المجمل المبنى على دعوى الاتحـــاد ، ثم

([1]) ينظر : الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية ص ١١٦ بتصرف .

([2]) ينظر تيسير الوصول ج ٤ ص ٢١ .

أراد أن يؤكد المعنى فضل تأكيد ، وينبه إلى الخطر زيادة تنبيه ، ويحقق المراد بما تحلقه هذه الرذيلة المنكرة وهو أغلى شئ يملكه المرء ، ألا وهو الدين ، فأتى بالأداة (أما) وعقبها بحرف التوكيد جذبا للانتباه ومضاعفة لليقظة .

ثم يبين بالفعل الواقع منها على المفعول أن محلوقها هو الدين ، وأى شىء بعد الدين يحرص عليه المؤمن ؟ ولا يخفى ما للمضارع من إفادة التجدد فكل ما ينبت فى القلب من معانى الدين يمر عليه حدها ما دامت باقية معه ، وذلك كناية عن أن هذه الخصلة لا تجتمع مع الدين فى قلب ، فمن أوتيها حرم الدين ، ومن أولىّ الدين عصمه الله منها ، ومراده عليه السلام أن تجاهد الأمة أنفسها ، فلا تلين لحرب الشيطان الذى يوغر الصدور ، وينزع بين الناس فيحبط أعمالهم . وفى ذلك من التحذير والترهيب من هاتين الخصلتين ما فيه أعازنا الله منها وكفانا شرهما .

الحديث السادس :

عن ابن عمر ﷺ عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إنما يلبس الحرير فى الدنيا من لا خلاق لهم فى الآخرة " . (١)

الحرير لباس المترفين ، رقيق ناعم يوائم البشرات الناعمة الرقيقة ، والدين يريد الرجال للجهاد والعمل خشنا صلبا ، فلابس الحرير من الرجال هارب من رسالته ، متشبه بالغانيات ، والرسالتان مختلفتان : وعليه فالمتشبه بهن لا خلق له فى الدنيا فضلا عن الآخرة ، ومن نصائح الرسول ﷺ لأمته : " اخشو شنوا وتمعددوا فإن النعمة لا تدوم " .

---

(١) الحديث رواه البخارى فى اللباس (باب لبس الحرير للرجال وقدر ما يجوز منه) ج ١٠ ص ٢٤٤ ، ومسلم فى اللباس (باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة على الرجال والنساء ... الخ (٢٠٦٨) .

لأن هناك ضررا بالغاً سيقع على المسلمين حين ينسلخ الرجال عن صفاتهم التى جلبوا عليها ، وتتحل أخلاقهم ، و الأكسية كما هى لباس الأجسام لباس الأنفس ، وهل تحس الأجسام خشونة الثوب أو نعومته إلا بحس أنفسها ؟

إنه معنى يستحق أن يؤكد بالقصر فيخصص فيه لبس الحرير بمن لا نصيب له من خير الآخرة ، حتى ينظر من له طمع فيه مصيره ، فينأى بجانبه ، وقد جعل الظرف الفانى مقابلا للخالد ، وحرير فى الفانى يحرم صاحبه سندساً واستبرقا دائمين ، وإطلاق خلاق الآخرة يتجاوز الحرير فيعم النعم كلها .

ترى كم تكون الخسارة فى لبس ثوب من حرير لغير عذر طبى ؟ .

إنه أمر " إن لم يكن معلوما فهو مما ينبغى أن يعلم ، ولذلك استعمل معه (إنما) ولم يتجه الكلام إلى لابس معين ، تعريضا بكل لابس حرير ، وتحذيراً لكل عازم على لبسه وترهيبا له .

ويستفاد من الحديث أن من خالف التحرير ، ولبس الحرير فى الدنيا فإنه يعاقب بدخول النار ، إن لم يتب ويستغفر الله منه .

الفصل الثالث

ضروب التوكيد المعنوية فى أحاديث الترغيب والترهيب

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : ضروب التوكيد المعنوية وأسرارها البلاغيـــة فـــى أحاديث الترغيب .

المبحث الثانى : ضروب التوكيد المعنوية وأسرارها البلاغيـــة فـــى أحاديث الترهيب .

المبحث الأول

ضروب التوكيد المعنوية وأسرارها البلاغية

فى أحاديث الترغيب

قد تفيد بعض التراكيب توكيد وتقرير ما تؤديه من معانى دون استخدام شئ من ضروب التوكيد السابقة ، وهذا ما نعنيه فى هذا الفصل .

والمتذوق للأساليب العربية ، والواقف على مكنون أسرارها يجد هذا اللون من التوكيد كثيرا ، وخاصة فى كثير من ألوان التشبيهات والمجازات والكنايات .

والمتأمل فى البيان النبوى يجد أنه يضرب بسهم وافر فى هذا الميدان ، ويتخذ من التعبير بهذه الألوان أداة ناجحة فعالة للوصول إلى هدفه من شغل الحس الظاهر والباطن ، وامتلاك النفس بكل ما فيها ، لأن هذه الألوان أقرب إلى النفس ، وهى بها آنس ، ولا سيما أن الرسالة التى جاء بها البيان النبوى تجديد للقيم ، وتعديل للمفاهيم ، وتعريف بأنماط من المعانى ، لا يسيغها العقل الدارج على ضدها ، إلا مأخوذا بقهر العاطفة وتأثر الوجدان ، يثنيانه ليعيد النظر ويختبر الدليل ، وإنما يهزهما فيهز العقل ليخلى مكانه إلى مكان جديد — ذلك التصوير المقنع ، الذى ينتجه المتكلم بكل قوى نفسه ، ليسكن أغوار نفس صاحبه .

وفى هذا المبحث سأعرض لمجموعة من أحاديث الترغيب اشتملت على ضروب من هذا التوكيد المستفاد من التشبيهات والمجازات والكنايات الواردة فيها .

الحديث الأول :

عن عائشة رضى الله عنها قالت : دخلت علىّ امرأة ومعها ابنتان لـــها تسأل ، فلم تجد عندى شيئا غير تمرة ، فأعطيتها إياها ، فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها ، ثم خرجت ، فدخل علىّ رسول الله ﷺ فأخبرتـــــه ، فقـــال : " من ابتلى من هذه البنات بشىء فأحسن إليهن كن له ستراً من النار " .(١)

عرفت جاهلية العرب بوأد البنات خشية عار أو إملاق ، وجاء الإســـلام يرفع شأن الحياة ، ويصعد معانى الخير ، ويعطى القيم مكانها لينتظم الوجود .

وهذه قصة صغيرة لكنها عجيبة من جانبين :

أولا : أنها تبين بالتطبيق العملى ما كان بيت النبى عليه الصلاة والسلام يحققـــه من القدوة للمؤمنين ، فيتخفف من زاد الدنيا حتى لا يوجد فيـــــه لأهلـــه وللسائل غير تمرة .

ثانيا : أنها تقرر بقوله ﷺ :" كنّ له سترا من النار " ما تقرر من عظيم المعنى.

ابتلاء من الله أن يولد لإنسان بنت فى ذلك الوقت السابق على الإســـــلام وابتلاء أيضا أن يولد لإنسان بنت فى هذا الوقت الذى نعيش فيه .

أمّا أولا : فيكفى أن يصور ذلك القرآن الكريم بقولـــه : ﴿ وَإِذَا بُشِّـــرَ أَحَدُهُـــمْ بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنْ الْقَوْمِ مِنْ سُـــــوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِـــــي الــتُّرَابِ أَلاَ سَـــاءَ مَـــا يَحْكُمُونَ ﴾.(٢)

---

(١) الحديث رواه البخارى فى الزكاة (باب اتقوا النار ولو بشق تمـــرة) ج ٣ ص ٢٢٥ والأدب .

(٢) سورة النحل . آيتان (٥٨ ، ٥٩) .

وأمَّا ثانيا : فلاتصال هذا الزمن بما قبله ، ولتأصل تلـــك العـــادات وصعوبـــة التحول تحسبا ومعنى دفعة واحدة .

وأمَّا ثالثا : فيما يحس به كل والد ووالدة من أن البنت أشـــد حاجـــة للرعايـــة وأعظم كلفة فى اليقظة ، لما يناط بها من الشرف ، ويتمثل فيها مـــن الكرامة .

لهذه المعانى جاء تعبير رسول الله صلى الله علية وسلم مصـــوراً كـــل التصوير بقولة : من ابتلى أما كلمة "شىء" ، فلعموم العدد ابتداء من أقله وهـــو الواحدة .

من كان حظه هكذا فأحسن الى ما رزقه الله من هـــذا الجنـــس الجديـــر بالإحسان جاعلا الحب مكان البغض ، والاستبشار مكـــان الإنكـــار ، وحســـن الصحبة محل سوء العشرة والتأديب بأدب الإسلام ، والتربيـــة بخلـــق القـــرآن دون ما سواهما من كان لهن كذلك فى الدنيا " كن له ستراً مـــن النـــار " فـــى الآخرة .

والستر هو الحائل ما وراءه ، والفاصل بين ما هنا وما هناك ، وما هنـــا هو الذى أحسن الى ما رزقه من البنات ، وما هناك هو نـــار جـــهنم بحرهـــا وشرها ، وإنسان ضعيف كل الضعف ، واجف القلب ، مرتعد الفريصه ، فـــى موقف هو له خطير ، وشرره يطير .

لم تعلق النفس بالساتر الواقى ، وكم تتأكد الرغبة فى الحامى الشـــفيع ، وكم يكون ذلك الساتر الحامى حبيبا عظيما كريم الصنيع ؟

إنه هذه البنت التى أحسن أبواها إليها بما سلف ، فأحسن الله إليهما بـــها حجاباً بينهما وبين النار .

إنه ترغيب عظيم فى الرضا بالبنات ، والإحسان إليهنّ ، نقل الإحساس بهن لحماً ودما إنسانيا وصوره جملية من البشرية الى الإحساس بهن سترا حصينا حامياً ، يقف بين النار وهوْ لها ، والأجسام الضعيفة وخوفها .([1])

ثم إن سقوط حرف التشبيه لا يجعل البنات شيئا والستر شيئا آخر ، فيهز الثقة ، ويضعف الأمل ، بل يجعلها شيئا واحداً كما هو الأصل فى المسند إليه ومسنده فى الجملة الاسمية الأمر الذى يؤدى الى توكيد الترغيب فى الإحسان الى البنات والرغبة فيهن .

الحديث الثانى :

عن أبى هريرة ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " أرايتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ما تقولون ؟ أيبقى ذلك من درنه شيئاً ؟ قالوا : لا يبقى ذلك من درنة شيئاً قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا " . ([2])

يقرر الرسول ﷺ فى هذا الحديث لأمة فضيلة الصلاة ، ويؤكد أجرها ويرغب فى المحافظة عليها ، لصبروا عليها ، فشبه المؤمن الذى يعد نفسه للصلاة فيصليها . ثم يعد نفسه للصلاة فيصليها حتى يتم فرض اليوم بحال المؤمن الذى يمر ببابه نهر فهو يغتسل فيه خمس مرات كل يوم ، والمماثلة بين الحالين مقصود منها إثبات الغاية التى هى جهتها ، وقد جاءت للتقرير مصرًّحا بها على وجه التقابل .

فتكرار الصلوات يمحو الخطايا ، كما أن تكرار الاغتسال لا يبقى من الدرن شيئاً ، وهنا ينتقل المؤمن كلما توضأ ليصلى أو كلما سمع النداء الى

([1]) ينظر : الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية ١٤٦ بشىء من التصرف .

([2]) ينظر : تيسير الوصول جـ٢ ، ص ١٧٤.

تصور نهر لا يجهده بُعْده ، إذ هو قريب ببابه ، وتصور درن يؤذيه بقلؤه ، إذ هو شيء مشين فوق جسمه ، وتصور اغتسال يورث النشاط ويزيل الدرن ، فيرى نفسه مندفعاً الى الصلاة سعيداً بها لينقى مما يشينه ، ويبرأ مما يثقله .

وقد جاءت صورة المشبه به سابقة فى التعبير " أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم .. " لتوقظ انتباه السامعين ، وتحرك شوقهم لاسيما وقد اقترنت بذلك الاستفهام التقريرى الذى يطلب منهم جوابه ليطيل الشوق ويزيد الانتباه ، مع أن الصورة الممثل بها فرضية محبوبة يتشهاها كل فرد يشعر بالحياة ، ويحس بالجمال : نهر ببابه يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ، وحسبنا ما توصى به كلمة نهر النكرة من رقة ، وصفاء وعذوبة ، وعظمة ، وما توحى به " الباء " بين النهر والباب ، من الالتصاق حتى كأن الدار تجرى من تحتها الأنهار ، وما يخيل لنا الفعل المضارع (يغتسل) من استحضار الصورة مع التجدد والحدوث طرفى النهار وزلفا من الليل ، يدل عليهما العدد المحصور فى اليوم ، ثم يطرد هذا مع العمر صعودا بإضافة لفظ العموم إليه (كل يوم) دلالة على اتصال النعيم ودوامة .

وتأمل قوله ﷺ " يبقى ذلك من درنه شيئاً " وسر الإشارة بهذا اللفظ الدال على التعظيم لما فيه من لام البعد وكاف الخطاب ، وداعى تقديم البيان وهو الجار والمجرور على المبين تعجيلاً بالمهم ، ثم تنكير المبين وهو (شيئا) لإفادة التعليل فمعناه : شيئا أى شيء مهما كان قليلاً .

أما فى جانب المشبه به المتأخر الذى أغنت فيه (الفاء الفصيحة) عن الإطناب بذكر الشرط ، فقد أعيدت عليه الإشارة بالتعظيم إجمالاً لتأكيد الربط وشدة الإيصال بين الهيئتين .

وهنا نرى تعريفا لا تنكيرا فى جميع الأسماء ، يرشد المؤمن إلى أن الصلوات المعهودة له والمفروضة عليه هى بنفسها التى مثل لها هذا التمثيل

الهادف بدليل إتباعها بهذا العدد ، ثم نرى جانبا لم يظهر هناك ، وهـو إسـناد فعل المحو الى لفظ الجلالة ، وجعل الصلوات آلـة المحـو وسـببه ، لـيزيد التفات الذهن إلى أن الممثل له هو الجانب الأشرف ، والعمل الأسـمى الـذى ينيل العبد رعاية الله ، فإذا روعى مع هذا أن لفظ المفعول الممحُّو وهو الخطايا جمع لا مفرد وبصيغة منتهى الجموع ، علم مقدار ما تفعل هذه الصلوات التـى لم تنل منا ما هى أجدر به من إيثار ، ومقدار غفلتنا عن نهر من النور لا يزيل درنا شاخصاً فحسب عن البدن ، وإنما يمحو آثاماً وخطايا تغمر العبد التـارك فتقذف به فى النار .

وفى هذا زيادة ترغيب وتقرير فى المحافظة على الصلوات الخمـس ، والتأكيد على أدائها فى أوقاتها حتى لا تفوت على المسلم هذه الفضـائل التـى تعطى لمن يحافظ على هذه الفريضة .

الحديث الثالث :

عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال " قال رسول الله ﷺ : " مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منـه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " . ([1])

الإيمان قوة واحدة تنتظم قلوب المؤمنين ، وتنبت فيها النبـات الحسـن المتماثل من التواد والتراحم والتعاطف ، فترى عند تجاوزهـا رقعـة واحـدة لتعانقها وتجانس نتاجها ، والإيمان فى قلوب المؤمنين كالدم المتدفق فى الجسـم به حياتها وتماسكها ، كما بالدم الأعضاء وترابطها ، ومعه وجود حياة الـروح وفعلها ، وأظهر المظاهر المرشدة الى الإيمان بـذل المؤمـن وده ورحمتـه وعطفه للمؤمنين فرحا لفرحهم ، وتألما لألمهم ، وتداعيا لما يصيبهم ، فمن فقـد

([1]) ينظر : تيسير الوصول جـ٣ ص ٢١ .

هذا التداعى فلم تعطفه العواطف ، ولم تبكه البواكى ، فليتحسس قلبة وليسأل نفسه : أين أنا من دلائل هذا الإيمان .

فى هذا الحديث أراد الرسول عليه الصلاة والسلام أن يقرر حقيقة الإيمان فى قلوب المؤمنين ببيان اللوازم المبينة لوجوده ، فضرب لهم فيها مثلا يصورهم متى كانوا عليها صورة أعضاء الجسد فى الجسد ، إذا تألم أحدها لم ينفرد بالألم دون سائرها ، فيسهر الجميع لسهره ، ويحم الجميع لحمّاه.

هذه الحال الجسمية والوجدانية من الأمور المجربة المألوفة مَرَّتَ بكل إنسان ، وستمر بكل إنسان ما كانت الإنسانية قائمة ، وهى مقياس دقيق يقيس به النبى ﷺ وسلم حال المؤمنين إذا تم إيمانهم ، ليحملهم على تزكية الأنفس وإرهاف الحسى ويقظة الروح ، لكل من يجمع الإيمان بينه وبينهم ، وليرشدهم الى أن مجتمعهم بخير ، وأمتهم بانتصار دائم ما كانوا هكذا : لا يتصورون أنفسهم أفراداً فى انفصال شأن ، واستقلال حياة ، وإنما يرونها أعضاء جسم ، يصح بصحة الجميع ، ويقوى بقوته ، ويمرض بمرض الواحد ، ويضعف بضعفه .

أليس تأخر المسلمين، وانحدار نجمهم آية صدق هذا الحديث ؟

أليس أيضا علاج قلوبهم وأداة انتصارهم وسبب عزتهم أن يعودوا فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم جسداً واحداً يسهر بسهر الجزء منه ويحم لحماه؟

هذه الظواهر والآثار لحقيقة الإيمان جاءت بصيغة التفاعل التى تدل على المشاركة فى إيجاد الفعل ، فالمضاف إليه وهو ضمير الجمع أفراده متماثلون فى بذل الود والرحمة والعطف وإتباع (الجسد) بصفة الواحد) تأكيداً للوحدة الحاصلة من تماسك الأعضاء والتى هى سهر السهر والحمى للذين يصيبان الجميع بإصابة العضو منه ، ولاشك أن الممثل به كلما زاد تقرارً وتأكداً زاد

الممثل له مثله ، لأنه موضوع له ، ومقيس به للاعتبار والموعظة ، ثم مجانسة جواب الشرط لفعله فى المضى مع إمكان أن يكون مضارعاً أدل على هذه الصفات لما فيه من إشعار بالمبادرة وإسراع بالنجدة ، للاقتران الزمنى بين الشكوى والتداعى .

وألطف اللطف فى التعبير ما يحمله لفظ (تداعى) من عجب المعنى ، فهو يخيل إليك أن أعضاء الجسد قد هبت للنجدة ، يدعو بعضها بعضا وينادية لإسعاف صاحبها أو مواساته ، ثم يجعل تناديه ليس الصراخ بلا مغيث ، وإنما هو الجواب العلمى المسعف والمساعد له : السهر والحمى .

الحديث الرابع :

عن أبى مسعود الخدرى ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : " من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له . ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له " .(١)

يشير الرسول ﷺ إلى ما ينبغى أن يكون عليه المسلم بالنسبة إلى أخيه المسلم من الحب والإيثار والتعاون ، لما لذلك من أثر عظيم فى تقوية الروابط والعلاقات ومن المعلوم أن الدواب من الأشياء التى يمتلكها الإنسان ، وأن لكل نوع منها نفعا معينا ، فدابة الركوب والحمل يقصد منها ما أضيفت إليه . قال تعالى : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) ولما كان أحدهما مكانه الظهر فقد عبر به فى الحديث مجازا عن الكل ، تعيينا لنوع الفائدة المرادة، من الجنس –وهذا يسمى عند البلاغيين بالمجاز المرسل(٣)

---

(١) تيسير الوصول إلى جامع الأصول ج ١ ص ١٥٠ .

(٢) سورة النحل : الآية (٨) .

(٣) ينظر : الإيضاح ضمن شروح التلخيص ج ٤ ص ٣٤ وما بعدها .

علاقته الجزئية — ليوازى ما عطف على هذه الجملة من فضل الزاد وغـــيره ، لأن الزاد متعين للأكل ، والدابة ليست متعينه للركوب أو الحمل ، فتصويرهـــا ظهراً أدل على شدة الحاجة إليه فى السفر ، وأشد تناسبا لما بعده فى النسق من جهة ما سبق ، ومن مماثلته للزاد فى قرب اتساع مدلوله اتساع الأجناس .

ولفظ المعية أعم من حرف الملكية والاختصاص ، وأصدق وأولى فـــى التآزر منه ، وأشمل فى بذل المنفعة ، وأنفى للاستئثار والشعور بالتملك فـــى مواطن الإيثار قد يدل تنكير المضاف إليه (ظهر ، زاد) على التقليل حتـــى لا يحقر إنسان فضل ما عنده ، فيكون تنكيره أعود بالنفع على المؤمنيـــن ، أمـــا الأمور بالعودة به على المحتاج إليه فإنه يشعر بانصراف الطبع عما ينبغـــى ، بوجوب النظر إلى ما يليق بالرجوع إلى ما هو الأفضل فـــى تماســـك الفـــرد بالجماعة ، وفى ذلك تأكيد للترغيب فى ما يقوى علاقة الفرد بالمجتمع حتـــى يشعر كل فرد بعدالة الإسلام ورحمة المجتمع ، فيرتفع عن الحقد ، ويسمو عن الحسد ولا يعرف الشماته . التى هى أمراض خطيرة على الأفراد والجماعات .

الحديث الخامس :

عن معاوية ﷺ قال : سمعت رســـول الله ﷺ يقـــول : " المؤذنـــون أطول الناس أعناقا يوم القيامة " . (١)

أراد الرسول ﷺ فى هذا الحديث الموجز أن يثبـــت شـــرف المـــؤذن وكرامته وعظيم أجره عند الله يوم القيامة ، غير أنه ﷺ لم يعبر باللفظ الـــدال بالوضع على الشرف والكرامة وعظم الأجر ، وعبر عن مراده بطول أعنـــاق المؤذنين .

---

(١) ينظر : الحديث فى تيسيرا لوصول ج ١ص ١٩٦ .

وطول العنق يظهر فى رفع الرأس إلى أعلى ، شعورا بكرامة المـــنزل وفرحا بحسن الثواب وقد شاع هذا التعبير فى الدلالة على الشـــرف والكرامـــة فيقال لمن أنال أهله شرفا : أطلت أعناقنا ورفعت رؤوسنا ، ويقال فى العكـــس للمسىء : قصرت رقابنا .

وفضل هذا التعبير أنه أوجز مما يفسر به لو قيـــل : المؤذنـــون أكـــرم الناس وأشرفهم ، بدليل طول أعناقهم لرفعة رؤوسهم يوم القيامة ، كما أنه ذكـر للدليل على صحة الحكم المفهوم من وراء العبارة ، فيشبه الجمع بين المعنـــى ودليل صحته .

وفهم المدلول الكنائى .([1]) إنما يأتى بحركة تخيليه تكسب العبارة قيمـــة فنية رائعة لأن الكلام فى مقام المدح بحسن المجازاة ، وطول العنق فى ذاته — وبخاصة على سبيل المبالغة بصيغة التفضيل — قد لا يكـــون جميـــلا ، وإذ يقترن المقام باللفظ المظل يحرك الذهن إلى ما هـــو الأنســـب مـــن المعـــانى الملزومة ، فتساعده الصورة التى يستحضرها الخيـــال مـــن تجـــارب الحيـــاة المماثلة ، فيصل إلى المراد بعد هذه الحركة النفسية ، فيكون ذلك سِـــرًّا مـــن أسرار التقرير والتوكيد . وأدعى إلى الترغيب فى المحافظة على هذه الشعيرة .

([1]) الكناية من أروع المسالك البيانية ، والطرق الأسلوبية التى يعبر بـــها المنشـــئ عـــن المعنى ، تعبيراً مُظِلًا هادفا موجزاً ، يخفى تحت ظلاله لطائف مراده ، وقد عرَّفوهـــا بقولهم : لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادته معه . وقـــال الإمـــام عبـــد القاهر: أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعانى ، فلا يذكره باللفظ الموضوع له فـــى اللغة ، ولكن يجئ إلى المعنى هو تاليه وردفه فى الوجود ، فيومئ به إليه ، يجعلـــه دليلا عليه . وقال الخطيب فى بيان سر أبلغيتها : أطبق البلغـــاء علـــى أن المجـــاز والكناية أبلغ من الحقيقة والتصريح ، لأن الانتقال فيهما من الملزوم إلى اللازم ، فـــهو كدعوى الشىء ببينه . " ينظر متن التلخيص بشرح مقدمة البرقوقى ص ٣٣٣، ٣٤٢.

وإنما خص هذا بيوم القيامة لأنه يوم الحق الذى لايلتبس فيه الحكم بالعمى والجهالة ، وتعظيمه فى هذا اليوم الشديد إنما يترتب على عظمته يوم تعظيمه الربَّ الجليل بقوله : " الله أكبر الله أكبر . أشهد أن لا إله إلا الله " لأنه يوم الجزاء على ما سبق من عمل ، وهذا من أحسن التعريض بمن لا يعنيهم أمر الأذان ، ولا يسارعون إلى ترديده وإجابة داعيه . وأنهم من الجهل بمكان ألا يعرفوا ما يجب أن يعرف من حق الصلاة ذاتها ، إذا كان هذا كله حق المؤذن بها . ([1])

ويستفاد من الحديث : بيان شرف المؤذنين وعلو منزلتهم يوم القيامة ، لأن المؤذن يدعو إلى الصلاة التى هى من أفضل الأعمال ، ويدل على الخير ، ومن دل على الخير فله مثل أجر فاعله .([2])

([1]) ينظر : صحيح مسلم فى كتاب الصلاة باب فضل الأذان (٣٨٧) .

([2]) ينظر : نزهة المتقين شرح رياض الصالحين ج ٢ ص ٢٤ .

المبحث الثانى

ضروب التوكيد المعنوية وأسرارها البلاغية

فى أحاديث الترهيب

الحديث الأول :

عن كعب بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله : " ما ذئبان جائعان أرسلا فى غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه " .(١)

حب المال رأس كل خطيئة يزينه الشيطان للناس ليفتنهم فيه ، قال تعالى :﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ . (٢) ويقول تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ . (٣)

وحب الظهور والرياسة ، وأن يشار إليه بالبنان ، وينهض إذا أقبل للقائه ، إنها نفحة ينفحها الشيطان فى قلبه ، وعقدة يعقدها فى نفسه ، وينفث فيها نفثة الغرور والكبرياء والإعجاب بالنفس واحتقار ما سواها ، ومن يموت على هذا من الكبر والفخر يكون أهون على الله من الجعلان الذى يدهده الخراء بأنفه ، فالناس كلهم لآدم ، وآدم من تراب .

صاحب إحدى البلوبين أوكليهما . الحرص على المال أو المنصب — مفسد لدينه ؛ لأنه لا يهدأ له بال ، ولا تستقر له نفس مادام هذا الحب يشغله

---

(١) ينظر الحديث فى تيسير الوصول إلى جامع الأصول : ج ٢ ص ٢٢ .

(٢) سورة آل عمران : الآية (١٤) .

(٣) سورة الأنفال : الآية (٢٨) .

ويوجه قواه المدركة ، لأن حب الشيء يعمى ويصم ، فكيف يبصر فى الديـــن فضيلة ، والدين يأمره وينهاه ليعيش عفا قنوعا ، وكاســباً مقتصــدا ، يجتنــب الشبهة وإن أربحت كثيراً ،وينفق ما جعله من ماله حقاً عليه ، وكيـــف يــأنس للدين والدين يأمره وينهاه ليخفض جناحه ، ويلين عريكته ، ويـــذل المؤمنيــن ويجعل العزة على الكافرين قال تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَــأْتِي اللَّــهُ بِقَــوْمٍ يُحِبُّــهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ .(١)

ألم يناد الدين أعلى جبهة فى البشرية : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَــكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . ألم يعاتب أعظم البشرية لأنه : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى(١) أَنْ جَــاءَهُ الْأَعْمَى(٢) ﴾ .

إذن فالدين حرب على هذين الأمرين ،وفساد الدين عندهما أيســـر مـــن فساد نزعتهما إنهما من عمل الشيطان . إنه عدو مضل مبين .

يريد الرسول عليه السلام النهى عن هذيــن والتحذير من شــرهما ، ولا شر أعظم ولا ضرر أنكى مما يصيب الدين ويفسده ، فيضرب المثـــل لحـــال الأمرين مع دين المرء ، بحال ذئبين خطيرين جائعين أرسلا فى غنم .

ماذا يفعل ذئبان جائعان أطلقا فى غنم ، أليس الفتك فى شرّه ، والســـفك فى سفه ؟ إنه يقر البطون ، وشق القلوب ، وإشباع النهم . صورهـــا الرســـول هكذا ليشغل فكر السامع فى مدى الخطر ،وليستحضر هذه الصورة كلما غـــره الهوى فأوقع فى نفسه خاطر المال أو الشرف ليخـــاف حـــب المـــال أو حـــب الشرف أن يفسد دينه ، كما يخاف ذئبا جائعا أرسل فى غنمه .

وفوق ذلك الإيضاح العام نرى فى البيان النبوى أمـــوراً أدق تقريـــرا ، وأوغل فى تأكيد هذا الخطر والترهيب منه .

---

(١) سورة المائدة : الآية (٥٤) .

منها : ذكر الحرص دون الحب ، لأن فيه إشـــارة إلـــى عمـــل النفـــس الإرادى ، ثم بناء الجملة على نفس التفضيل مثبت للمساواة إن لم يثبت العكس ، إذ أن العكس محتمل فيكون التمثيل حملا على الأقل ، وهو يقتضـــى المبالغـــة فى إثبات الإفساد ، وقد هيأ هذا النفى لتأكيد آخر حاصل بزيادة حـــرف الجـــر الداخل على الخير (بأفسد) ثم أتباع النكرة بالوصفين عَمَـــلٌ لـــه مدلولـــه ، فالذئب طبعه الفتك والإفساد جائعا وشبعان ومرسلا ومقيدا ، فهو مخوف علـــى كل حال ،فإذا انضم إلى طبعه الجوع ضاعف الخطر وأنذر بالفاجعة ، فوجبـــت مضاعفة الخوف وتزايد الحذر ، فإذا انخرق السياج وسقطت الحماية ، فأرسل فى الغنم ، فليبك على ما أولم به للذئب صاحبها كل هذه ألفـــاظ مـــن الحديـــث القصير ، الذى أوجز بهذا القصر ، وبحذف ما يسهل تقديره ، فإن إفساد الذئبين للغنم يقابله إفساد حرص المرء على المال والشرف لدينه .

هل يرى المرء حرصه على المال إلا ذئبا جائعا مرسلا ؟ - وحرصـــه على الشرف مثله ، وهل يرى دينه إلا الفريسة المنبوذة لعدو الذئـــاب ؟ وهـــل يرى خوفه على دينه أجدر بحرصه من خوفه على ماله . ([1])

الحديث الثانى :

روى عن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال : " تقيئ الأرض أفـــلاذ كبادها مثل الأسطوان من الذهب والفضة ، فيجىء القاتل فيقـــول فـــى مثـــل هذا قتلتُ ويجىء القاطع الرحم فيقول فى مثل هذا قطعت رحمـــى .. ويجـــىء السارق فيقول فى مثل هذا قطعت يـــدى . ثـــم يتركونـــه ولا يـــأخذون منـــه شيئا " . ([2])

([1]) ينظر : الحديث النبوى الشريف من الوجه البلاغية ص ١٦٨ بتصرف .

([2]) ينظر : آمالى المرتضى : ج ١ ص ٩٥ .

فى هذا الحديث يصور لنا رسول الله ما يتكالب عليه الناس من متـــاع ، وما يجرم به بعضهم علـــى بعض هذه الصورة الذميمة ، التـــــى تغثـــى لـــها النفس ، ويشمئز منها الطبع ، فيجمع دونها الثياب ، وينأى بالجانب : صـــورة القىء ... والقىء لأفلاذ الكبد .

إننا الآن فى هذه الحياة عمى ، عمى عن هذه الرؤية ، إنـــها ستتكشـــف تماما فى الغد ، حين يذوب الرواء الكاذب والبريق الخادع ، الذى يلقيه الشيطان ليغشى أبصارنا فتغشى عن الحقيقة ، ليقتل القاتل طمعا فى غير محيى ،ويقطـــع القاطع رحما فى غير واصل ، ويسرق السارق خلسة ما يبيد ،وهنـــاك عندمـــا يبطل السحر والساحر ، فتنحبس نفثات الشـــيطان ســـتخرج الأرض أثقالـــها ، ويظهر منبوذا ومبتذلا ما كانوا به يجرون ، فلا يرون سوى الذنب قد فعلـــوه ، والإثم قد اقترفوه ، فى هذا الحطام الذى يغادرونه ولا يمسونه ، لأنهم به مـــن الشيطان قد ظلموا ، وفيه للناس قد ظلموا .

هذا المشهد الغيبى قطعة رائعة من ختام الحياة ، يصور فيه الرسول ﷺ الأرض صورة شخص غثيان ، يطرح من فمه ما يؤذيه حتى يقىء من كبـــده ... هذه الأفلاذ من الكبد مثل الأسطوان من الذهب والفضـــة ، والســـر فـــى ذلك أن يرى الطامع ويقر ما أُخبِر به من الدين صدقا ، وما كَذَّبَ به من الحـــق حقا .

إن تشبيه الأرض بإنسان يقىء تشخيص للأرض فى صورة كريهـــة ، وقيؤها أفلاذ كبدها يقوى هذه الصورة فالقىء وأفلاذ الكبد لـــوازم الحيـــوان ، وإنما جعل المشبه به المحذوف هو الإنسان وإن وقع اللازمان من غيره _ لمـــا أسند الله إلى الأرض فى الآيات المشبهات للحديث من لوازم الإنســـان : فـــى قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ۚ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۚ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَـــى

لَهَا ﴾ . ([1]) فهى استعارة بالكناية ، ونسبة القىء وأفلاذ الكبد للمشنبه وهو الأرض تخييل يذهب فيه الذهن ما يذهب . يقرر المعنى ويؤكد الغاية وهى الترهيب والتنفير مما يكون سببا فى ارتكاب الجرائم والآثام . ألا وهو الطمع وحب المال والتكالب عليه .

الحديث الثالث :

عن أنس ﷺ " قال : قال رسول الله ﷺ " من كانت الآخرة همَّه جعل الله غناه فى قلبه ، وجمع عليه شمله ، وأتته الدنيا وهى راغمة ، ومن كانت الدنيا هَمَّهُ جعل الله فقره بين عينيه ، وفرق عليه شمله ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّرَ له ، فلا يمس إلا فقيراً ، وما أقبل عبد على الله بقلبه إلا جعل الله قلوب المؤمنين تنقاد إليه بالود والرحمة ، وكان الله بكل خير إليه أسرع . "([2])

اشتمل الحديث على عدة كنايات بعضها يفيد الترغيب وبعضها يفيد الإلزام والترهيب . فقوله : " من كانت الآخرة همه " كناية عن التمسك بالدين ، واجتناب ما حرمه الله . والتزام ما أمر به .

وقوله : " جعل الله غناه فى قلبه " كناية عن القناعة بالمقسوم من الرزق وقوله : " جمع عليه شمله " كناية عن قرار النفس وعدم تفرقها شعاعاً على أسنة المطامع .

وقوله : " وأتته الدنيا وهى راغمة " إيماء من التقدير قبل الخلق ، وجفاف القلم بما هو كائن .

([1]) سورة الزلزلة : الآية (٣ ، ٤ ، ٥) .

([2]) ينظر : الحديث فى تيسير الوصول ج ٤ ص ١٦٢ .

وقوله : " من كانت الدنيا همه " كناية عن شدة الحرص على الفـــانى ، ولا تجتمع مع الحرص على الباقى الخالد ، ففيه الاستهانة بالدين ، وترك سـبيل المؤمنين . وقوله (جعل الله فقره بين عينيه) كناية عن تصوره الشـــديد لـــه ليظل فزعا منه معاقباً بتصوره له ، جاهدا فى دفعه عنـــه . وقولـــه : " فـــرق عليه شمله " كناية عن تشعب قلبه بالمطامع ، وإيعاد مشتقة بطـــرح الأمـــانى وقوله : " ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له " تصريح بما سبق إليه التلميح مؤكـد له . وإقبال العبد على الله بالقلب كناية عن إخلاص العبادة ، والتخلـــص مـــن العوائق بتمام الانقياد للأمر والنهى ، فالذى يتم بسببه الجـــزاء الممـــاثل مـــن تطويع القلوب المؤمنة ، وانقيادها لصاحبه بكل ودٍّ ورحمة ، ومـــن نجـــدة الله العاجلة فى كل أمر بكل خير . جعلنا الله ممن يؤثرون الآخرة علـــى الدنيـــا ، والباقية على الفانية .

الخاتمة :

بعد هذه الإطالة السريعة فى هذا البحث المتواضع حول ضروب التوكيد فى أحاديث الترغيب والترهيب نستطيع أن نقف على عدة حقائق من أهمها ما يلى :

١- أن كلام رسول الله ﷺ فى قمة الفصاحة والبلاغة بعد كلام الله تعالى ، فكلامه دائما يأتى مطابقا لمقتضى الحال .

٢- أن الأحاديث المتعلقة بالترغيب أو الترهيب تعد – فيما أرى – من أكثر الأحاديث التى تشتمل على لون من ألوان التوكيد ، حيث إنها تمس غالبا الأخلاق ، وبيان جزاء المطيع وعقاب العاصى عند الله تعالى فيكون ذلك دافعا لما تدعو إليه .

٣- أن ضروب التوكيد الواردة فى أحاديثه الشريفة لم يأت بها رسول الله ﷺ لشك المخاطب فى خبره – فهم يعلمون صدقه وأمانته – وإنما لزيادة الترغيب فيما يدعوهم إليه ، والترهيب مما ينهاهم عنه ، فتقوى هممهم .

٤- تعددت وتنوعت ضروب التوكيد فى أحاديثه ﷺ وفقا لما يقتضيه المقام ، وقرائن الحال بين ضروب توكيد فعلية استخدم فيها رسول الله ﷺ الحاسة كتغيير هيئته ، أو نبرات صوته ، أو الفصل بين فقرات كلامه ، واستخدام وسيلة إيضاح كخطه ﷺ على الأرض بعد فراغه من دفن الميت ، وتشبيك أصابعه ... إلى غير ذلك من وسائل الإيضاح التى تقرر المعنى وتؤكده كما مر فى الأحاديث الواردة فى البحث . كما استخدم ضروب التوكيد اللفظية التى وضعتها اللغة كإنّ ، وأنّ ، والقسم والنون ... وغيره إلى

جانب ما تفيده الأساليب الأخرى من تقرير وتأكيد كالتشبيهات والمجـازات والكنايات ... وغير ذلك مما كشفَ النقاب عنه فى البحث .

هذا وبالله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

دكتور

رجب محمد سالم رفاعى

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

جامعة الأزهر

أولا فهرس المراجع

القرآن الكريم

- الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى .
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعى طبعة المنار .
- الأقصى القريب فى علم البيان للقاضى التنويض .
- آمالى المرتضى .
- الإنساب للسمعانى .
- الإيضاح لتلخيص المفتاح .
- البرهان فى علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركش .
- البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى للدكتور محمد أبو موسى .
- تيسير الوصول إلى جامع الأصول للشيبانى مطبعة الحلبى .
- الجامع الصغير للإمام السيوطى .
- الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية .
- خصائص التراكيب للدكتور محمد أبو موسى .
- دراسة تحليلية للفصاحة والبلاغة والإسناد دكتور الشحات أبو ستيت دلائل الإعجاز للشيخ عبد القاهر .
- رصف المبانى .
- شرح المفصل لابن يعيش . نشر مكتبة المتنبى.
- شروح التلخيص .

- صحيح مسلم .
- عمدة القارئ لبدر الدين العينى طبعة منير الدمشقى .
- فتح البارى شرح صحيح البخارى .
- كتاب اللامات للزجاجى .
- كشف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلونى .
- الكشاف للزمخشرى .
- الخلائق للإمام عبد الرؤوف المناوى .
- لسان العرب لابن منظور . دار المعارف .
- المجازات النبوية للشريف الرضى .
- المجموعة النحوية .
- المزهر للسيوطى .
- معجم البلدان .
- معجم الأدباء .
- معجم مقاييس اللغة لأبى الحسن أحمد بن فارس بن زكريا .
- مغنى اللبيب لابن هشام الأنصارى .
- مقدمة الفائق فى غريب الحديث .
- الموافقات .
- نزهة المتقين شرح رياض الصالحين .
- وصايا الرسول ﷺ وأثرها فى تقويم الفرد وإصلاح المجتمع للدكتور محمد بكر إسماعيل .

ثانيا : فهرس الموضوعات

م	الموضوعـــــــات	الصفحة
١	المقدمة .	٢٤٥
٢	**تمهيد** : ضروب التوكيد وأهم دوافعه .	٢٤٩
٣	**أولا** : مفهـــــــوم التوكيـــــــد .	٢٥٠
٤	**ثانيا** : دواعى التوكيد وأغراضـــــــه .	٢٥١
٥	**ثالثا** : أهم ضروب التوكيد والتقريـــر .	٢٥٨
٦	**الفصل الأول : ضروب التوكيـــد الفعليـــة فـــى أحـــاديث الترغيب والترهيب .**	٢٦١
٧	**المبحث الأول** : ضروب التوكيد الفعلية وأسرارها البلاغية فى أحاديث الترغيب .	٢٦٣
٨	**المبحث الثانى** : ضـــروب التوكيـــد الفعليـــة وأســـرارها البلاغية فى أحاديث الترهيب .	٢٧٣
٩	**الفصل الثانى : ضروب التوكيد اللفظيـــــة فـــى أحـــاديث الترغيب والترهيب .**	٢٨١
١٠	**المبحث الأول** : ضـــروب التوكيـــد اللفظيـــة وأســـرارها البلاغية فى أحاديث الترغيب .	٢٨٣
	الطريق الأول : إعادة الجملة الأولى أو شىء منها .	٢٨٣
	الطريق الثانى : التوكيد بأداة وضعتها اللغـــة أو العـــرف البلاغى .	٢٩٧

م	الموضوعـــــــات	الصفحة
١١	**المبحث الثانى** : ضروب التوكيـــد اللفظيـــة وأســـرارها البلاغية فى أحاديث الترهيب .	٣١٠
	الطريق الأول : إعادة الجملة الأول أو شىء منها .	٣١٠
	الطريق الثانى : التوكيد بأداة وضعتها اللغـــة أو العـــرف البلاغى .	٣١٦
١٢	**الفصل الثالث : ضروب التوكيد المعنويـــة فـــى أحـــاديث الترغيب والترهيب .**	٣٢٣
١٣	**المبحث الأول** : ضروب التوكيـــد المعنويـــة وأســـرارها البلاغية فى أحاديث الترغيب .	٣٢٥
١٤	**المبحث الثانى** : ضروب التوكيـــد المعنويـــة وأســـرارها البلاغية فى أحاديث الترهيب .	٣٣٦
١٥	الخاتمـــة .	٣٤٢
١٦	الفهارس .	٣٤٤